

أهل البيت

الإمام علي بن أبي طالب

obeikandi.com

أهل البيت

الإمام علي بن أبي طالب

للأستاذ

توفيق أبو عاصم

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع.

هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيرًا ﴾ .

[سورة الأحزاب]

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ .

[سورة الشورى]

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين والصفوة من صحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فخير مقدمة لكتابي (على بن أبي طالب) أن أبدأ بهذا
الدعاء من أدعية الإمام رضى الله عنه :

[اللهم إنك آنس الآنسين لأوليائك ، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين
عليك ، تشاهدهم في سرائرهم ، وتطلع عليهم في ضمائهم ، وتعلم مبلغ
بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة ، وقلوبهم إليك ملهوفة ، إن أوحشتهم
الغربة آنسهم ذكرك ، وإن صببت عليهم المصيبة لجأوا إلى الاستجارة
بك ، علماً بأن أزمة الأمور بيدك ، ومصادرها من قضائك .

اللهم إن فهيت عن مسألتي ، أو عميت عن طلبتي ، فدلني على
مصالحى ، وخذ بقلبي إلى مرادى ، فليس ذلك بنكر من هداياتك
ولا ببدع من كفاياتك .

اللهم احملني على عفوك ، ولا تحملني على عدلك .

اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك ، أو أضلّ في هداك ، أو أضام في سلطانك ، أو أضطهد والأمر لك . اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك ، أو نفتن عن دينك أو نتابع بنا أهواؤنا دون الهدى الذي جاء من عندك] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الإمام عليّ بن أبي طالب

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال للإمام عليّ :
« حبك إيمان ، وبنضك نفاق ؛ وأول من يدخل
الجنة محبك ، وأول من يدخل النار مبغضك »
[حديث شريف]

هو عليّ بن أبي طالب (واسمه عبد مناف) بن عبد المطلب (واسمه
شيبه الحمد) بن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مناف (واسمه المغيرة)
ابن قصي بن كلاب بن مرة بن أوى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر
ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد
ابن عدنان .

مولده :

ولد رضى الله عنه بمكة داخل البيت الحرام ، فى يوم الجمعة لثلاث
عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل ، قبل الهجرة
بثلاث وعشرين سنة - ولم يولد قبله ولا بعده مولود فى بيت الله سواه - وفى
ذلك يقول السيد الحميرى :

ولدته في حرم الإله وأمنه والبيت حيث فناؤه والمسجد
 بيضاء طاهرة الثياب كريمة طابت وطاب وليدها والمولد
 في ليلة غابت نجومس نجومها وبدت مع القمر المنير الأسعد
 ما لف في خرق القوابل مثله إلا ابن آمنة النبي محمد

وفي ذلك يقول أيضاً عبد الباقي العمري :

أنت العلي الذي فوق العلا رفعا بيطن مكة وسط البيت إذ وضعها

وقد سمته أمه : حيدرة - والحيدرة الأسد - ويدل على ذلك خبره

يوم برز إليه مرحب ، وارتجز عليه :

قد علمت خير أني مرحب

شاكى السلاح بطل مجرب

أنا الذي سمتني أمي مرحبا

فأجابه عليّ كرم الله وجهه :

أنا الذي سمتني أمي حيدره

عبل الذراعين شديد القصره

أكيلكم بالسيف كيل السندره

وأترك القرن بقاع جزره

ضرب غلام ماجد ضروره

ضرغام آجام وليث قصوره

كليث غابات كربه المنظره

أضربكم ضرباً يبين الفقره

أضرب بالسيف رقاب الكفره

من يترك الحق يقوم صعره

وما سمته أمه بهذا الاسم إلا لتغرس فيه روح الحماسة والبسالة وتبعث في نفسه شجاعة الأسد وإقدامه - وقد كان في ذلك مضرب المثل .

وسماه أبوه عليًّا ، وقال :

سميته بعلي كى يدوم له عن العلو وفخر العز أدومه

وكانه الرسول صلى الله عليه وسلم بأبي تراب وقد اختلف في سبب هذه التسمية فذهب بعضهم إلى أن سببها أنه صلى الله عليه وسلم مرَّ به نائمًا تسنى عليه الريح التراب فقال : قم يا أبا تراب ، ألا أخبرك بأشقى الناس أجمعين ؟ عاقر الناقة والذي يضربك على هذا فيخضب هذه - يعنى على رأسك فيخضب لحيتك بدمك ^(١) . ويروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدته في المسجد نائمًا وقد ترب جنبه فجعل يمسح التراب عن جنبه ويقول : قم أبا تراب .

ويرى العلامة السيد محمد الصدر أن كلمة « أبو تراب » كناية عن كثرة عبادته وصلواته لأن المسلمين في السابق كانوا يسجدون على التراب ، وكان الإمام على معفر الجبين لكثرة ما يسجد ، فقوله : قم أبا تراب على حد قوله قم يا كثير العبادة .

(١) ص ٥٥ من كتاب إمتاع الأساع للمقرئى .

وفي رأى أستاذنا محمد صادق الصدر أن هذه الكنية كانت أحب الكنى إليه . كما أن المعروف أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما يدعوه بها ؛ ولا بد أن ذلك لميزة تستحق هذه العناية من الرسول صلى الله عليه وسلم .

وذكر ابن أبي الحديد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « اجلس إنما أنت أبو تراب » ، فجاء وإنما - وهي للحصر - ولا معنى لأن يحصر فيه التراب وإنما حصر فيه صفة عالية كانت من مميزات الإمام ، وهي العبادة - فهذه الكنية بهذا المعنى وسام من النبي منحه الإمام .

وللشاعر الشهير عبد الباقى العمري في هذه الكنية معنى مبتكر جميل ، فهو يجعل آدمَ ابناً للتراب لأنه خلق منه - ويجعل علياً أباه لأنه أبو تراب فيقول :

أنت ثانی الآباء فی منتهی الدو ر وآبؤه تعد بنوه
خلق الله آدمًا من تراب فهو ابن له وأنت أبوه

وقد أحس خصوم الإمام ، وبخاصة معاوية ، برفعة هذه الكنية وميزة صاحبها، فأخذوا يموهون على الناس بأن سبوه بها على المنابر مظهرين

أنها منقصة له (١) - ولكن المسلمين المؤمنين يعرفون منزلة الإمام ويقدرونه
حق قدره .

أمه :

أمه فاطمة بنت أسد : وفي الأغاني : هي أول هاشمية تزوجها
هاشمي ، وأول هاشمية ولدت خليفة ، وهي أم سائر ولد أبي طالب ،
وكان عليّ أصغر بنيتها ، وجعفر أسن منه بعشر سنين ، وعقيل أسن
منه بعشر سنين ، وطالب أسن منه بعشر سنين ، وخرج يوم بدر مع
المشركين كارهاً ، ولم يعرف له خبر ، ولا عقب له .

وهو وإخوته أول هاشميين ولدوا من هاشميين :

ويقول السيد محسن الأمين :

له فاطم أم وكانت لأحمد	بير وإشفاق هي الأم والظفر
فيغدو رهيناً عندها متكحلاً	وأولادها شعث شعورهم غير
به آمنت في مكة ثم هاجرت	إلى يثرب ماشاب إيمانها نكر
وكفتها خير الوري في قميصه	وفي قبرها قد نام مذحفر القبر
ولقنها القول السديد الذي به	

لدى الحشر تنجو حين يجمعها الحشر

(١) ابن أبي الحديد (ص ٤ - الجزء الأول) .

بخير أب ينمى وأكرم حرّة
 هما الهاشميان اللذان تفرعا
 له نسب من شعبة الحمد باهر
 نماء إلى العليا لؤي بن غالب
 بذلك سميت عدنانا واقتخرت فهر
 على خير فرع أصله هاشم عمرو
 جلي فمن ساماه أقعده البهر
 وعبد مناف قدمضى قبله النضر

وكانت ذات رأى أصيل ، ومرض نبيل ؛ وكانت في مقدمة النساء اللاتي بايعن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد سارت سيرة خديجة رضي الله عنها في استرواح. نفس النبي صلى الله عليه وسلم ومواساته وتأييد أمره ، وتقيّلت خلق زوجها أبي طالب في النود عنه ومؤازرته ، وإعلاء كلمته ، ونشر رسالته ، وكانت جريئة لا تخاف في الحق لومة لأثم ، ولم تهب أحداً من أساطين المعارضين ممن غالبوا في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كثيراً ما وقفت في وجوههم ، وردت عنه عداوتهم ، وقد تابعته في هجرته إلى المدينة ، وكان بيتها بها مقبلاً طيباً ومشوى مباركاً ، كما كان في مكة ليأذاً أميناً ، وموثلاً كريماً ، فهي منقطعة النظير فيما أظهرته في تأييد المصطفى صلى الله عليه وسلم ونصرته ، ولقد كان عليه السلام يزورها في بيتها فيجدها فيأحة نفاحة متهللة الوجه .

وكانت تعطف على زوج ولدها « السيدة فاطمة الزهراء » عطف الأمهات على أفلاد أكبادهن ، وكانت تعاونها في أعمالها ، وتساعدها في أمورها ، ولقد قال علي رضي الله عنه لأمه فاطمة بنت أسد : « اكفي فاطمة

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سقاية الماء ، والذهاب في الحاجة ،
وهي تكفيك من الداخل الطحن والعجن » ، فكانت بارة بها ، حانية
عليها ، مدللة لأولادها ، عاطفة عليهم .

ولما توفيت كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه ، وأمر
من يحفر قبرها ، فلما بلغوا لحدها حفره بيده ، واضطجع فيه ، وقال : « اللهم
اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع عليها مدخلها » .
فقبل يارسول الله ، رأيناك صنعت شيئاً لم تكن تصنعه بأحد مثلها ،
فقال : « ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة » ، أو قال : هو أمان
لها يوم القيامة . واضطجعت في قبرها ليوسعه الله عليها ، وتأمين ضغطة
القبر ، إنها كانت من أحسن خلق الله صنعةً إلى بعد أبي طالب .
وروى الحاكم في المستدرک بسنده عن سعيد بن المسيب عن عليّ
ابن الحسين عن أبيه عن جده أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ؛ قال :
لما ماتت فاطمة بنت أسد كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه ،
وصلى عليها ، وكبر عليها سبعين تكبيرة ، ونزل في قبرها فجعل يومئ
في نواحي القبر كأنه يوسعه ويسوي عليها ، وخرج من قبرها وعيناه
تذرفان ، وحثا في قبرها ، فقال له عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ،
رأيتك فعلت على هذه المرأة شيئاً لم تفعله على أحد فقال له : « إن هذه
المرأة كانت أمي بعد أمي التي ولدني ؛ إن أبا طالب كان يصنع الصنيع ،

وتكون له المأدبة ، وكان يجمعنا على طعامه ، فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيبنا فأعود فيه » .

زوجاته :

١ - فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتزوج عليها حتى توفيت .

٢ - أمامة ^(١) بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى ، وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمها السيدة خديجة بنت خويلد ، وقد أوصت السيدة الزهراء الإمام علياً أن يتزوجها بعد وفاتها .

٣ - خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة .

٤ - ليلي بنت مسعود بن خالد .

٥ - أم البنين بنت حزام بن خالد .

٦ - أم ولد .

(١) أوصى ابن الربيع قبل موته بابنته أمامة إلى ابن خاله الزبير بن العوام بن خويلد . وقد زوجها الزبير من الإمام علي ، وظلت أمامة معه حتى قتل ، فكان شهداها وهي تطيف به وهو سجي على فراشه يمرق القلوب ويفتت الأكياد حتى لقد قالت أم المهيم :
أشاب ذؤابى وأذل ركبي أمامة حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتها إليه فلما استيأست رقت رهينا

- ٧- أسماء بنت عميس .
 ٨- الصهباء وهي أم حبيب بنت ربيعة .
 ٩- أم سعيد بنت عروة بن مسعود .
 ١٠- حياة بنت امرئ القيس .

أولاده^(١):

في مروج الذهب : يقول المسعودي إن عدد أولاد الإمام خمسة وعشرون . ويقول المفيد في الإرشاد إنهم سبعة وعشرون ، وهم : الحسن والحسين ، وزينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى ، (وأمه فاطمة بنت سيد المرسلين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم) ، وعبد الأكبر (ابن الحنفية ، وأمه خولة) ، وعبد الله وأبو بكر (وأمهما ليلى) ، والعباس الأكبر ، وعثمان وجعفر الأكبر وعبد الله (وأمههم أم البنين) ، ومحمد الأصغر (وأمه أم ولد) ، ويحيى وعون (وأمهما أسماء بنت عميس) ، وعمر الأكبر ورقية (وأمهما الصهباء) ، ومحمد الأوسط (وأمه أمامة) ، وأم الحسن ورملة الكبرى (وأمهما أم سعيد) ، وأم هاني وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة ،

(١) سمي الإمام من أولاده بأسماء الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان ، كما سمي في الفصل الخاص بموقف الإمام على بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ،
ونفيسة ، وابنة لم تسم (وأمهم محياة) .

ويقول ابن سعد في طبقاته : فجميع ولد عليّ بن أبي طالب لصلبه
أربعة عشر ذكراً وتسع عشرة امرأة ، وكان الحسن والحسين يعدان
أبناء للرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي الرياض النضرة للمحب الطبري
أنه كان وافر الحظ من الذرية فبقي منهم بعده كثيرون .

وقد كثّر الله تعالى نسل عليّ وفاطمة عليهما السلام بدعوة النبي صلى
الله عليه وسلم لهما ليلة زفافهما بقوله : اللهم أخرج منهما الكثير الطيب .
وفي كتاب « الرياض النضرة » أيضاً ، يقول المحب الطبري :

روى أبو سعيد في شرف النبوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لعليّ :

« أوتيت ثلاثاً لم يؤتهن أحد ولا أنا : أوتيت صهراً مثلي ولم أوت
أنا مثلي ، وأوتيت زوجة صديقة مثل ابنتي ، ولم أوت مثلها زوجة ، وأوتيت
الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبي مثلهما ، ولكنكم مني
وأنا منكم » ... وفي رواية : « أوتيت أربعة . . . والرابعة لولائك ما عرف
المؤمنون » . . . إشارة إلى قول الرسول : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

وفي كتاب : « مناقب آل طالب » روى الحديث بطريق آخر :
« أن النبي قال : يا عليّ لك أشياء ليست لي منها : لك زوجة مثل فاطمة

وليس لى مثلها ، ولك ولدان من صلبك وليس لى مثلهما من صلى ،
 ولك مثل خديجة حماة وليس لى مثلها حماة ، ولك صهر مثلى وليس لى
 صهر مثلى ، ولك أخ مثل جعفر وليس لى مثله فى النسب ، ولك أم مثل
 فاطمة بنت أمد الهاشمية ، المهاجرة وليس لى مثلها » .

وفى تفسير آية المباهلة ، يقول المفسرون إن المراد بأنفسنا الرسول صلى
 الله عليه وسلم ، وعلى رضى الله عنه ، وبنسائنا فاطمة ، وبأبنائنا
 الحسن والحسين : (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا
 وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ، ويقول الرازى فى
 تفسيره : هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين كانا ابني رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ، وعد النبي أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين . . .

وقد تواتر الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وادى
 هذان إمامان قاما أو قعدا » ، وقال : « هما ريحانناى من الدنيا » ؛
 وعن الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل والد أب ،
 فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإنى أنا أبوهما » ، ويقول الإمام
 على رضى الله عنه فى محمد بن الحنفية : إنه ابني ، أما الحسن والحسين
 فإنهما ابنا الرسول .

وبما لاشك فيه أن علياً وفاطمة والحسن والحسين هم آل محمد
 وآل الرسول وآل البيت . ويتحدث الإمام على فى هذا وعلى نعمة
 الله عليه فيقول :

محمد النبي أخى وصهرى
وجعفر الذي يمسى ويضحى
وبنت محمد سكنى وعرمى
وسبطا أحمد والداى منها
سبقتكم إلى الإسلام طراً
وصليت الصلاة وكنت فرداً
وحمزة سيد الشهداء عمى
يطير مع الملائكة ابن أمى
مشوب لحمها بدمى ولحمى
فأيكم له سهم كسهمى
صغيراً ما بلغت أوان حلمى
فمن ذا يدعى يوماً كيوى

ويقول الإمام الحسين رضى الله عنه :

أليس رسول الله جدى والوالدى أنا البدر إن نخل النجوم خفاء ؟ !

ويكنى الإمام على أبا الحسن وأبا الحسين ، وكان الحسن فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه أبا الحسين والحسين يدعوه أبا الحسن ، ويدعوان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباهما ، فلما توفى النبي صلى الله عليه وسلم دعوا علياً أباهما ، وكان يكنى أيضاً بأبى تراب ، كتناه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الاستيعاب بسنده قيل لسهل بن سعد إن أمير المدينة يريد أن يبعث إليك لتسبّ علياً عند المنبر ، قال : كيف أقول ؟ قال : تقول : أبا تراب ، فقال : والله ما سمناه بذلك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وكيف كان ذلك يا أبا العباس ؟ قال دخل على فاطمة ، ثم خرج من عندها فاضطجع فى صحن المسجد فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة ، فقال أين ابن عمك ، قالت هو ذاك مضطجع فى المسجد ، فوجده قد سقط رداؤه عن

ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره ، ويقول اجلس أبا تراب ، فو الله ماسماه به إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ما كان اسم أحب إليه منه . كما سبق وبينت ذلك تفصيلا .

واقبه أمير المؤمنين والمرضى وحيدر والوصى والأصم والأنزع البطين . ويقول ابن عباس : وكان على يتبع في جميع أمره مرضاة الله ورسوله ، فلذلك سمى المرضى ، أما لقبه الأنزع البطين فلأنه عاياه السلام كان ذا صاعقة ليس في رأسه شعر إلا من خلفه - وكان عظيم البطن - وهاتان الصفتان قد كونتا له هذا اللقب ، فإذا قيل الأنزع أو الأنزع البطين تبادر إلى الذهن أنه الإمام . وقد وصف محمد بن الحنفية الإمام فقال : « كان ربع القامة ، أزج الحاجبين ، أدعج العينين ، أنجل ^(١) ، كأن وجهه القمر ليلة البدر حسناً وهو إلى السمرة ، أصابعه حفاف من خلفه كأنه إكليل وكان عنقه لإبريق فضة . وهو أرقب ، ضخم البطن ، أقرى الظهر ، عريض الصدر ، محض المتن ، شئن الكفين ، ضخم الكسور ، لا يبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً - عبل الذراعين ، عريض المنكبين ، عظيم المشاشين كمشاش ^(٢) السبع الضاري ، له لحية قد زانت صدره ، غليظ العضلات - خممش الساقين » .

وقد شاء عمرو بن العاص أن يتلاعب في أوصافه عليه السلام فلما

(١) النجل : سمة العين مع حسنها . يقال رجل أنجل وامرأة فجلاء .

(٢) المشاش : رأس العظم .

كتبت أوصافه عن ثبيت الخادم أخذها عمرو فزم بأنفه وقطعها وكتب :
 « إن أبا تراب كان شديد الأدمة عظيم البطن خمش الساقين ونحو ذلك » .
 وما كان الإمام أسمر ولا شديد السمرة وإنما كان يميل إليها كما ترى من
 صريح عبارة محمد بن الحنفية .

وما لا شك فيه أن الإمام كان على جانب عظيم من الجمال ،
 وحسبه أن يشبه بالبدر الساطع . وعن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه
 قال : « من أراد أن ينظر إلى إبراهيم في حلمه ، وإلى نوح في حكمه ،
 وإلى يوسف في جماله ، فليتنظر إلى علي بن أبي طالب » (١) .

وكان أبيض ، أى كبير البطن ، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب
 مشية النبي صلى الله عليه وسلم . وإذا مشى إلى الحرب هرول ثبت
 الجنان قوياً ، ما صارع أحداً إلا صرعه .

وكان يتمتع بقوة جسدية بالغة في المكافحة والصلابة والصبر على
 العوارض والآفات ، ومن قوة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالي
 الحر والبرد ولا يحفل الطوارئ الجوية في صيف ولا في شتاء ، فكان يلبس
 ثياب الصيف في الشتاء ، وثياب الشتاء في الصيف ، وسئل في ذلك فقال :
 « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى وأنا أرمد العين يوم خيبر ،
 فقلت : يا رسول الله إني أرمد العين ، فقال : اللهم أذهب عنه الحر
 والبرد ، فما وجدت حرّاً ولا برداً منذ يومئذ . . . » .

(١) ذخائر العقبى (ص ٩٤) - وحيات أمير المؤمنين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ،
 يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا
 وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة ، طويل الفكرة ،
 يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام
 ما جشِب ، يعظم أهل الدين ، ويعرف المساكين ، وكان ينضرع
 إلى الله سبحانه وتعالى ، ويقول : « يا دنيا غُرمي غيبي ألى تعرضت أم
 إلى تشوقت ، هيهات هيهات ؛ قد بنتك ثلاثاً لا رجوة فيها ، فعمرك
 قصير ، وخطرك كبير ، وعيشك حقير ، آه آه ؛ من قاة الزاد ، وبعد
 السفر ، ووحشة الطريق . . . » .

ويقول ابن عبد البر في الاستيعاب: كان على إذا ورد عليه مال لم يبق
 منه شيئاً إلا قسمه ، ولا يترك في بيت المال منه إلا ما يعجز عن قسمته
 في يومه ذلك ، ولم يكن يستأثر من الشيء بشيء ، ولا يخص به حميماً
 ولا قريباً ، ولا يخص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات ،
 وإذا بلغه من أحدهم خيانة كتب إليه (قد جاءكم موعظة من ربكم
 فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعذوا
 في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم
 بحفيظ) .

ويقول ابن عبد البر : أجمعوا على أنه صلى إلى القبلتين ، وهاجر ،

وشهد بدرأ والحديبية وسائر المشاهد ، وأنه أبلى بيدر وبأحد وبالخندق
وبخير بلاء عظيماً .

وفي الإصابة : رُبِّي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه ،
وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك .

على بن أبي طالب ولد مسلماً :

لنستمع أولاً إلى ما يقوله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة
في مناقب الإمام على ، كرم الله وجهه :

اجتمع للإمام على بن أبي طالب من صفات الكمال ومحمود
الشمال والحلال وسناء الحسب وباذخ الشرف مع الفطرة النقية والنفس
المرضية ، ما لم يتهياً لغيره من أفذاذ الرجال .

تحدّر من أكرم المناسب ، وانتمى إلى أطيب الأعراق ، فأبوه
أبو طالب ، عظيم المشيخة من قريش ، وجده عبد المطلب أمير مكة
وسيد البطحاء ، ثم هو قبل ذلك من هامات بني هاشم وأعيانهم .

وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ « ملح الأرض » وزينة الدنيا ،
وحلى العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ،
وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب
الوثيق ومعدن الفهم وينبوع العلم .

واختص بقربته القريبة من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان ابن عمه وزوج ابنته وأحب عترته إليه ، كما كان كاتب وحيه وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه ، أسلم على يديه صبياً قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة أو يخاط عقله شوب من شرك موروث ، ولازمه فتياً يافعاً في غدوه ورواحه وسلمه وحربه ، حتى تخلق بأخلاقه واتسم بصفاته ، وفقه عنه الدين وتفقه ما نزل به الروح الأمين ، فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم وأحفظهم وأدعاهم وأدقهم في الفتيا وأقربهم إلى الصواب ، حتى قال فيه عمر : لا بقيت معضلة ليس لها أبو الحسن .

وكانت حياته كلها مفعمة بالأحداث مليئة بجلال الأمور ، فعلى عهد الرسول عليه السلام ، تاضل المشركين واليهود ، فكان فارس الحلبة وسعر الميدان صليب النبع جميع الفتواد .

وفي أيام خلافته كانت له أحداث أخرى تلي فيها ما تلي من تفرق الكلمة واختلاف الجماعة وانقسام العروة ، مما طوى أضلعه على الهمة والأسى ، ولاح قلبه بالحزن والشجن ، وفي كل ما تلي من أحداث وأمور ، وما صادف من عن وخطوب بلا الناس وخبرهم وتفتن لمطاوي نفوسهم واستشف ما وراء مظاهرهم ، فكان العالم المجرب الحكيم والناقد الصيرفي الخبير ، وكان لطيف الحس نقي الجوهر ، وضياء النفس ، سليم الذوق ،

مستقيم الرأي ، حسن الطريقة ، سريع البديهة حاضر الخاطر ، عارفاً بمهمات الأمور لإصداراً وإيراداً .

وما يعينني في شرح ابن أبي الحديد قوله : « أسلم على يديه -- يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم -- قبل أن يمسه قلبه عقيدة سابقة أو يخالط عقله شوب من شرك موروث . . . » ، فقد ولد الإمام داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، وتربى عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه لما أصاب أهل مكة جذب وقحط قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه العباس رضى الله عنه وكان من أيسر بني هاشم - : « يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى ، فانطلق بنا إلى بيته لتخفف من عياله عنه ، فتأخذ أنت رجلاً وأنا آخذ رجلاً فنكفلهما عنه » ، فقال العباس : أقبل ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب وحمزة عنده وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شتم ، وكان عقيل أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه ، فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرأً وأخذ النبي عليه الصلاة والسلام علياً ، وكان أصغرهم .

وفي ذلك يقول السيد محسن الأمين :

أتت سنة شهباء أصبح عندها أبو طالب قد حل ساحتها الفقر
فقالوا دعونا نكفه بعض ولده مساعدة فالحر يسنده الحر
خلفوا من أردتم إن تركتم بجانبى عقيلاً فلي في حبه منكم عنذر

لأحمد أعطينا علياً وجعفرأ لحمزة والعباس طالب فليدروا
 وقد كان على يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل قيل إنه
 عندما أخذه كان يلي أكثر تربيته ويظهره في وقت غسله ، ويوجره اللبن
 عند شربه ، ويحرك مهده عند نومه ، ويناغيه في يقظته ، ويحمله على
 صدره ، وكان يحمله دائماً ويطوف به جبال مكة وشعابها وأوديتها كأنه
 يفعل ذلك ترويحاً له ، وفي ذلك يقول السيد محسن الأمين من قصيدة
 طويلة :

وربيت في حجر النبي محمد فطوبى لمن من أحمد ضمه حجر
 وغذاك بالعلم الإلهي ناشئاً فلا علم إلا منك قد حاظه خبر
 بأدابه أدبت طفلاً ويافعاً وأكسبك الأخلاق أخلاقه الغر
 ويقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة - قد ورد في الكتب
 الصحاح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجاور في حراء كل سنة شهراً
 حتى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة فجاور في حراء شهر
 رمضان ومعه أهله خديجة وعلى بن أبي طالب وخادم لهم .
 وما لا شك فيه أن خلق على نما أولاً على شمائل بيت أبيه أبي طالب
 ذاك الذي أصغت جدرانها لأول مرة إلى عبادة محمد ، وخرجت
 منه الدعوة الإسلامية إلى الوجود ، فإن علياً ما كاد يبلغ من عمره حتى
 ضمه الرسول صلى الله عليه وسلم إليه وآخاه ، وبذلك تربى على في البيت
 الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية ، وقد أشار على إلى تعهد محمد

إياه بخطبته التي قال فيها : « وقد تعلمون موضعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرابة القريبة ، وضعني في حجره وأنا وليد يضمنني إلى صدره ويكفني فراشه ويمسني جسده ويشمني عرقه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل وكنت أتبعه إلتباع الفصيل إثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاعتداء به » .

وهذا هو أول الزمن الذي يتأهل الغلام فيه لتلقي بذور الأخلاق الفاضلة . وطالما جاور على محمداً في خلواته وسار على نهجه في الانقطاع عن القرشيين المترددين في ليل من جهاتهم وجمودهم على ما هم عليه من عادات وأخلاق ، وطالما عاش في ذلك الجو الركي إلى جوار ابن عمه وهو أثير لديه حبيب إلى قلبه . وإن مثل هذا الحوار وهذا الإخاء لم يظفر به أحد غير علي من أصحاب الرسول وتلاميذه ، لقد فتح علي بن أبي طالب عينيه على الطريق التي رسمها ابن عمه ، وعرف العبادة أول ما عرفها من صلاته ، ونعم بعطفه وحنانه وإخائه فإذا هو من محمد ما كان محمد من أبي طالب .

وخفق قلب علي أول ما خفق بحب ابن عمه ونطق لسانه أول ما نطق بما لقنه إياه من رائع القول ، واكتملت رجولته أول ما اكتملت لمؤازرة النبي المضطهد ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه أنصاره ويحترمه أعداؤه فهل يكون ربيبه وتلميذه وابن عمه علي إلا شيئاً من كيانه ، شيئاً كثيراً من كيانه عظيم .

وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أول الدعوة احتكاماً للعقل وتخلصاً من الوثنية ، وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدفق بها رسالة محمد واستنكاراً للجور الذي يلهب ظهورهم بسياطه ، وإذا أسلم قوم بعد انتصار النبي امتثالاً للواقع وتزافاً للمتصر كما هي الحال بالنسبة لبعض الأمويين - إذا أسلم هؤلاء جميعاً في ظروف متفاوتة من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانية وتتحد في خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن فإن علي بن أبي طالب قد ولد مسلماً ، لأنه من معدن الرسول مولداً ونشأةً ومن ذاته خلقاً وفضةً ، ثم إن الظروف الذي أعلن فيه عما يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين ولم يرتبط بموجبات العمر ، لأن إسلام علي كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف ، إذ كان جارياً من روحه كما تجري الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها ، فإن الصبي ما كاد يستطيع التعبير عن خلجات نفسه حتى أدى فرض الصلاة وشهد بالله ورسوله بدون أن يستأذن أو يستشير .

لقد كان أول سجود علي لإله محمد . ويقول العلامة تقي الدين أحمد بن علي المقرئ : « وأما علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم القرشي فلم يشرك بالله قط .

لقد كان أول من أسلم من الناس بعد خديجة رضي الله عنها . إن الله تعالى أراد به الخير فجعله في كفالة ابن عمه سيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم ، فعندما أتى رسول الله الوحي وأخبر خديجة رضى الله عنها وصدقت ، كانت هي وعلى بن أبي طالب وزيد بن حارثة حبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون معه ، وكان صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلى صلاة الضحى وكانت صلاة لا تنكرها قريش ، وكان إذا صلى في سائر اليوم بعد ذلك قعد على أو زيد رضى الله عنهما برصدانه .

ويقول المؤرخ الشهير يعقوبى فى تأريخه : « وكان أول من أسلم خديجة بنت خويلد من النساء وعلى بن أبي طالب من الرجال — ثم زيد ابن حارثة ثم أبو ذر » ، وذكر أنه روى عن عمرو بن عبسة السلمى أنه قال : « أتيت رسول الله أول ما بعث وبلغنى أمره فقلت : صف لى أمرك ، فوصف لى أمره وما بعثه الله به ، فقلت : هل يتبعك على هذا أحد ، قال : نعم امرأة وصبي وعبد — يريد خديجة بنت خويلد ، وعلى بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة » .

كذلك يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل : « وكذلك كان على أول رجل أسلم ، ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبي ، وبذلك بقى الإسلام محصوراً فى بيت محمد ، فيه وفى زوجه وابن عمه وهولاه . وظل يفكر كيف يدعو قريشاً إليه وهو يعلم ما هى عليه من شدة البأس وبالغ التعلق بعبادة آبائها وأصنامهم » . وروى عن سلمان أنه قال : « أول هذه الأمة وروداً على نبيها الخوض أولها إسلاماً :

على بن أبي طالب» - وروى عن ابن عباس أنه قال : لعلى أربع خصال ليست لأحد غيره وذكر منها أنه أول عربي وعجمي صلى مع النبي وقد روى الطبري في تاريخه : « أن أول ذكر آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه وصدق بما جاء من عند الله على بن أبي طالب عليه السلام » .

ويقول خزيمة بن ثابت الأنصاري - وهو ذو الشهادتين - للإمام حين بويع بالخلافة : « يا أمير المؤمنين ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك ولا كان المنقلب إلا إليك - ولئن صدقنا أنفسنا فيك لأنت أقدم الناس إيماناً وأعلم الناس بالله - وأولى المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم - لك ما لم وليس لم ما لك » (١) ؛ ويقول الفضل بن عباس : وكان وليّ الأمر بعد محمد على وفي كل المواطن صاحبه وصيّ رسول الله حقاً وصهره وأول من صلى وما ذم جنايه

وعن ابن عباس أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول من صلى معي على بن أبي طالب » ؛ وقد صلى على مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل الناس بسبع سنين كما يفهم ذلك من حديث أبي أيوب الأنصاري ، فإنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة صلت على وعلى على سبع سنين قبل أن يسلم بشره ؛ ويكرر الحديث بصيغة أخرى فيقول : « قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : صلت الملائكة علىّ وعلى عليّ سبع سنين لأننا كنا نصلى ليس أحد غيرنا يصلى .

وأخيراً يقول الإمام نفسه : « أنا عبد الله ، وأنا أخو رسوله وأنا الصديق الأكبر ، ولقد صليت قبل الناس بسبع سنين » .

أسلم إسلام الرجل الذي أتيح له أن ينشأ على حب الخير وينمو في رعاية النبي ويصبح إمام العادلين من بعده .

وكان الإمام على أول من رأت عيناه النبي وزوجته خديجة وهما يصليان ، ثم إنه كان أول المسلمين وهو لم يبلغ الشباب ، ولما عوتب على إسلامه بدون مشورة أبيه أبي طالب أجاب على الفور : « لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله » ، وقد قال على رضى الله عنه : « ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيرى عبت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين » .

وحينما بعث النبي صلى الله عليه وسلم اتبعه على وآمن به وصدقه وكان عمره في نحو العاشرة وقيل السابعة ، لم تكن القرابة وحدها هي التي قربته من الدين الذي دعا إليه ، فقد أصر كثير من أقرباء الرسول على الشرك زمناً طويلاً ، منهم عقيل أخوه الذي حارب المسلمين في بدر وأسلم بعد صلح الحديبية .

وفستطيع أن نقول إنه رضى الله عنه قد ولد مسلماً وطبع على الإسلام
لأنه :

١- لم يعرف قط عبادة الأصنام ، كما عرف عن أمه فاطمة بنت أسد أنها لم تسجد لصنم .

٢- أن الرسل عليه الصلاة والسلام كان يتعبد في بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع علينا أن يألف تلك العبادة في طفولته الباكرة لأنه كان عابداً يشبهى العبادة ، كأنها رياضة تريجه وليست أمراً مكتوباً عليه .

٣- أنه طبع على الإسلام ، فلم تزد المعرفة إلا ما يزيد التعليم على الطباع .

٤- وكان الإمام المسلم الخالص على سجيته المثلى .

٥- كما أحسن الإسلام علماً وفقهاً أحسنه عبادة وعملاً .

٦- كما جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة .

٧- كذلك أبى الإمام أن يدهان في دينه ويعطى الدنيا في أمره ، وكان يؤثر الخير كما يراه هو لا الخير كما يراه الناس .

٨- وكان على سيد الكلام في الإسلام ، وسأوفى هذه النقطة حقها فيما بعد .

الإمام عل

أما ملازمته الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يزل على في صحبته ملازماً له ، فأقام معه عليه الصلاة والسلام بعد البعثة ثلاثاً وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة سنة بمكة قبل الهجرة مشاركاً له في محنة كلها متحملاً عنه أكثر أثقاله ، وعشر سنين بالمدينة بعد الهجرة يكافح عنه المشركين ويجاهد دونه الكافرين ويقيه بنفسه من أعدائه في الدين . وكان على عليه السلام يفدى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وينيمه أبوه أبو طالب في مرقد رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً على النبي ويعرضه للقتل ويوطن نفسه على ذلك ، يقول ابن أبي الحديد : قرأت في أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب قال : كان أبو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم البيات إذا عرف مضجعه ، وكان يقيمه ليلاً من منامه ويضع ابنه علياً مكانه ، فقال له علي ليلة : يا أبت إني مقتول ، فقال له أبو طالب :

اصبرن يا بنى فالصبر أحجى	كل حى مصيره لشعوب
قد بذلناك والبسلاء شديد	لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأغر ذى الحسب الثا	قب والباع والكريم النجيب
إن تصبك المنون فالنبيل تبرى	فصيب منها وغير مصيب
كل حى وإن تطاول عمراً	أخذ من سهامه بنصيب

٩- وشهد سيدنا على المشاهد كلها ولم يتخلف إلا في تبوك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه في أهله ، فقال : يا رسول الله

تخلفني في النساء والصبيان ؟ قال : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » .

١٠ - نقل الواحدى في كتابه المسمى : « أسباب النزول » أن الحسن والشعبي والقرطبي قالوا :

« إن علياً رضى الله عنه والعباس وطلحة بن شيبه افتخروا :

فقال طلحة : أنا صاحب البيت مفتاحه بيدي ولو شئت كنت فيه .

وقال العباس : وأنا صاحب السقاية والقائم عليها .

فقال على : لا أدرى لقد صليت ستة أشهر قبل الناس ، وأنا

صاحب الجهاد في سبيل الله . فأنزل الله تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ

الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ) - إلى أن قال - (الَّذِينَ آمَنُوا

وَجَاهَدُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً

عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

١١ - وأخيراً فقد كان إسلام على هو إسلام الرجل الذى أتبع

له أن يتلمذ لربه جل وعلا ، كما يتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصاً

في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه ، ويربى في حجر نبيه ، ويصبح

إماماً للمتقين من بعده .

خصائص الإمام عليّ

١ - اختصاصه بلقب الإمام :

حدد علماء الكلام معنى الإمامة فقالوا : « الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص إنساني . . . » ، فالإمام حسب هذا التحديد هو الزعيم العام والرئيس المتبع ، وله السلطة الشاملة على الناس في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية . والإمامة ضرورة من ضروريات الحياة لا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال ، فيها يقام ما اعوج من نظام الدنيا والدين ، وبها تتحقق العدالة الكبرى التي ينشدها الله في أرضه ، ومن أهم الأمور الداعية إلى وجود الإمام إيصال الناس إلى عبادة الله ، ونشر أحكامه وتعاليمه ، وتغذية المجتمع بروح الإيمان والتقوى ، ليمتعد الإنسان بذلك عن الشر ، ويتجه إلى الخير ، ويجب على الأمة كافة الانقياد إليه والامتثال لأوامره ليقم أودها ويلم شعبها ويهديها إلى سواء السبيل .

وللإمام واجبات كثيرة منها : حفظ الدين ، وحراسة الإسلام وصيانته من المستهترين بالقيم والأخلاق ، وتنفيذ الأحكام ، وحماية البلاد الإسلامية ، وإنصاف المظلوم ، والجهاد . . . إلخ .

وهناك شروط لا بد أن تتوافر في الإمام كالعلم والعدالة والشجاعة والنجدة ، وأخيراً العصمة . وقد عرفت : بأنها لطف من الله يفيضها على أكمل عباده ، وبها يمنع عن ارتكاب الجرائم والموبقات عمداً وسمواً ، وهذه الأوصاف لم تتوافر إلا في أئمة أهل البيت حصنة الإسلام وحماته والأدلاء على مرضاة الله وطاعته ، وقد وصفهم الشاعر بقوله :

القرييين من ندى والبعيدي	ن من الجور في عرى الأحكام
والمصيبين ما أخطأ النسا	س ومرسى قواعد الإسلام
والحماة الكفاة في الحرب إن لف	ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النا	س فأوى حواضن الأيتام
راجحى الوزن كامل العدل في اله	يرة طيَّبوا بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية النا	س سـواء ورعية الأغنام

وقد قال الإمام علي: « من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

وبذلك اختص علي بن أبي طالب بين جميع الخلفاء الراشدين بلقب الإمام ، وهذا اللقب إذا أطلق لا ينصرف إلى أحد غيره من بين جميع حكام المسلمين .

وما سبب ذلك ؟ ألم يكن الصديق إماماً كعلي ؟ أو لم يكن عمر

إماماً كعلي؟ أو لم يكن عثمان إماماً كعلي؟ أو لم يكونوا خلفاء راشدين إذا فصلت الخلافة الراشدة بعد النبوة؟ بلى؛ كانوا أئمة مثله وسبقوه في الإمامة.

ويجيب العلامة الأستاذ العقاد عن هذا السؤال فيقول: «ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر. وصفة تناوبها صفة. ولا أن يصبح رمزاً للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها، وكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس، وذلك هو علي بن أبي طالب كما لقبه الناس، وحري لقبه على الألسنة، فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديجه المنغومة في الطرقات بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف.

وخاصة أخرى من خواص الإمامة ينفرد بها علي ولا يجاربه فيها إمام غيره. هي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام، فهو منسئ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه، وندرت فرقة في الإسلام لم يكن علي معلماً لها منذ نشأتها أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها».

وزيادة على ما تقدم فالشروط التي بيئتها آنفاً والتي يجب أن تتوافر في الإمام كلها مترافرة في الإمام علي بن أبي طالب وفي مقدمتها تلك الخاصية التي ينفرد بها بحق وهي العلم، وسأتكلم عن هذه الميزة فيما

بعد ، وأقول هنا : إن عبد الله بن عباس كان تلميذاً للإمام ، وعرف ابن عباس بالبحر في العلم حتى وصف بأنه « حبر الأمة وترجمان القرآن » ، ولما سئل ابن عباس : « أين علمك من علم ابن عمك ؟ » قال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . وقال له عمر رضى الله عنه : « لا أبقانى الله بأرض لست بها يا أبا الحسن » كما قال :
لولا على لهلك عمر .

وقد قال أبو عبيدة رضى الله عنه : ارتجز الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه في تسع كلمات ، قطع الأطماع عن الالتحاق بواحدة منهن . ثلاث في المناجاة ، وثلاث في العلم ، وثلاث في الأدب ؛ فأما التي في المناجاة فهي قوله : كفانى عزاً أن تكون لى ربّاً ، وكفى بى فخراً أن أكون لك عبداً ، أنت لى كما أحب فوفقتى لما تحب . وأما التي في العلم فهي قوله : المرء مخبوء تحت لسانه فتكلموا تعرفوا ، ما ضاع امرؤ عرف قدره . وأما التي في الأدب فهي قوله : انعم على من شئت تكن أميره ، واستعن بمن شئت تكن نظيره ، واحتجج إلى من شئت تكن أسيره .

وروى أبو الفرج في كتاب الأغاني : أن ابن عباس سمع قصيدة لعمر بن أبي ربيعة مرة واحدة فحفظها وأعادها، وما سمعها قط إلا تلك المرة صفحاً (أى مروراً) ثم أنشدتها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، فقال له بعضهم : ما رأيت أذكى منك قط . فقال ابن عباس : لكننى

ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام .
 ٢ - كما بينا نشأ الإمام علي في حجر رسول الله ، وتأدب بأدابه ،
 وتخلق بأخلاقه ، واهتدى بهداه ، واقتدى به في أقواله وأفعاله ، ولازمه
 طول حياته ، واستمع إلى الامام علي يقول : « وقد علمتم موضعي
 من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنزلة الحاصصة ، وضعني في حجره
 وأنا وليد يضمنني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ويمسني جسده -
 إلى أن قال - ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لي في
 كل يوم من أخلاقه علماً ، ويأمرني بالاعتداء به ، ولقد كان يجاورني كل
 سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة
 وأشم ريح النبوة .

وفي أسد الغابة ، بسنده عن ابن إسحاق قال : أقام رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ينتظر الوحي بالإذن له بالهجرة إلى المدينة حتى
 إذا اجتمعت قريش فكرت بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا علي
 ابن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر
 ففعل ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم وهم على بابه .
 قال ابن إسحاق : وتتابع الناس في الهجرة وكان آخر من قدم المدينة
 من الناس ، ولم يفتن في دينه علي بن أبي طالب . وذلك أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم أخره بمكة وأمره أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه
 ففعل ، ثم لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا يقول أحد الشعراء :

ومواقف لك دون أحمد جاوزت
فعلى الفراش يبيت ليلك والعدى
فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما
فكفيت ليلته وقمت معارضاً
واستصبحوا فرأوك دون مرادهم
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى
بمقامك التعريف والتحديد
تهدى إليك بوارقاً ورعوداً
يهدى القراع لسمعك التفريداً
بالنفس لا فشلاً ولا رعديداً
جبلاً أشم وفارساً صنديداً
أو ما دروا كنز الهدى مرصداً

٣ - سبقه إلى الإسلام وعدم سجوده لصنم قط : سبق أن أشرنا بالتفصيل إلى أن على بن أبي طالب واد مسلماً - ويقول ابن أبي الحديد : ما أقول في رجل سبق الناس إلى الهدى وآمن بالله وعبّده ، وكل من في الأرض يعبد الحجر ، ويوجد الخالق ، لم يسبقه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كل خير محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذهب أكثر أهل الحديث إلى أنه عليه السلام أول الناس اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل الإجماع على أن علياً كان أول من آمن من الأحداث الذين لم يبلغوا الحلم ، وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها أولى المؤمنات من النساء ، كما كان أبو بكر أول من آمن من الرجال ، وفى ذلك يقول أمير الشعراء :

ناجاهم بينات ربه فأمنت بنت خويلد به

فقيل فيها أسبق الإنساث وفي على أسبق الأحداث
وفي الرجال لأبى بكر يد بالسبق لم يبلغ مداها سيد

وعن زيد بن الأرقم أن على بن أبى طالب أول من أسلم ، وقال
ابن إسحاق : أول من آمن بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم
من الرجال على بن أبى طالب ، وروى بسنده عن ابن عباس ، قال :
« لعلّى أربع خصال ليست لأحد غيره ، هو أول عربى وعجمى صلى
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى كان لوائه معه فى كل
زحف . وهو الذى صبر معه يوم فر غيره ، وهو الذى غسله وأدخله
قبره » .

ولا يكاد يكون هناك خلاف إطلاقاً فى أن عليّاً أول من أسلم
بعد خديجة رضى الله عنها ، ويؤيد ذلك كل الروايات والأحاديث
التي ذكرت عن زيد بن الأرقم ، وابن إسحاق ، وابن عباس ، وسلمان
الذى يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « أول هذه الأمة وروداً على
الحوض أوفى إسلاماً على بن أبى طالب » .

وابن شهاب ، وعبد الله بن محمد بن عقيل ، وقتادة ، عن أنس
ابن مالك قال : « استنبنى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين وصلى
علىّ يوم الثلاثاء » .

٤ - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع خاصة أهله وعشيرته
فى ابتداء الدعوة إلى الإسلام ، فعرض عليهم الإيمان واستنصرهم على

أهل الكفر والعدوان ، وضمن لهم على ذلك الحظوة في الدنيا والشرف
وثواب الجنان ، فلم يجبه أحد منهم إلا على بن أبي طالب .

٥ - أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم مقامه يوم الهجرة في أداء
أماناته ورد ودائعه وقضاء ديونه لما علم من أمانته وكفائته وشجاعته فقام
بما أمر به .

٦ - المؤاخاة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن
عبد البر في الاستيعاب : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين
المهاجرين ، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ، وقال في كل واحدة
منهما لعل أنت أخى في الدنيا والآخرة ، وآخى بينه وبين نفسه ، وروى
عن عليّ أنه كان يقول : « أنا عبد الله وأخو رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، لا يقولها أحد غيري إلا كذاب ، آمنت قبل الناس بسبع سنين » ،
وفي ذلك من إبانة فضله على الكافة ، والدلالة على أنه لا كفاء لرسول الله
صلى الله عليه وسلم سواه ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تحريك الهادي النبي لنفسه أخاً حين آخى بينهم فلك الفخر
فهل كان مذ آخاك مثلك فيهم وأخطأ انتقاء المصطفى ، إنه الهذر

٧ - وأنه رضى الله عنه صاحب رايته ، وعن ابن عباس أنه قال :
« هو صاحب لوائه في كل زحف » ، ففي غزوة بدر الكبرى ، وفي غزوة
أحد كانت الراية ولواء المهاجرين مع عليّ .

٨ - أن الإمام علياً كان مؤثراً للاجتهاد معرضاً عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور ، وأبى أن يأتي بعملهم فيما يراه وما لا يراه ، وأوصى ابنه الحسن فقال : « اعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إلى من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك فإنهم لم يدعوا أن نظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر . وفكروا كما أنت مفكر . فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك بدون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بنفسهم وتعلم لا يتورط الشبهات وعاق الحصومات ، وابتدئ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإهلك والرغبة إليه في توفيقك وترك كل شائبة أولجتك في شبهة أو أسلمتكم إلى ضلالة ، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان همك واحداً ، فانظر فيما فسرت لك .

٩ - الشجاعة وامتيازه فيها وتفوقه :

هو الشجاع الذي ما فرق قط ولا ارتاع من كتيبة . قال : ابن أبي الحديد في شرح النهج : أما الشجاعة فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله ، ومحا اسم من يأتي بعده : ومقاماته في الحرب مشهورة تضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة .

وكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو في ناشئ على عمرو بن ود فارس

الجزيرة العربية الذي كان يقرم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعاً في الحديد ينادى جيش المسلمين ، من يبارز ؟ فصاح عليّ : أنا له يا نبي الله ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم وبه إشفاق عليه : إنه عمرو ، اجلس ، ثم عاد عمرو ينادى ألا رجل يبرز ؟ وجعل يؤنبهم قائلاً : أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم ؟ أفلا تبرزون إلى رجلا ؟ فقام على مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يا رسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس ، إنه عمرو ، وهو يجيبه : وإن كان عمراً ، حتى أذن له فشى إليه فرحاً بهذا الإذن المنوع كأنه الإذن بالخلاص ، ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟

قال ولم يزد : أنا علي .

قال : ابن عبد مناف ؟

قال : ابن أبي طالب .

قال : يا بن أخي من أعمامك من هو أسن ، وإني أكره أن أهريق دمك .

فقال : لكني والله لا أكره أن أهريق دمك .

فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف كان - كما قال واصفوه - كأنه شعلة نار ، واستقبل عليّ الضربة بدرقته ففقد السيف وأصاب رأسه . ثم

ضربه على - على حبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار فما انجلي إلا عن عمرو صريعاً وعلى يحار بالتكبير .

واستمع إلى أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسي بعد موته :
لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبداً ما دمت في الأبد
لكن قاتله من لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وقيل إنه لما دعا معاوية إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما قال له عمرو : لقد أنصفتك . فقال معاوية له : ما غششتني منذ نصحتني إلا اليوم . أتأمرني بمبارزة أبي الحسن ، وأنت تعلم أنه أشجاع المطرق . أراك طمعت في إمارة الشام بعدى .

وفي وقعة بدر التي بها تمهدت قواعد الدين . وأذل الله جبابرة المشركين . وقتل فيها رؤسائهم . كان الإمام قطب الرحي في هذه الموقعة . وكذلك كان في وقعة أحد ، ويوم « حنين » ثبت مع الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هرب عنه الناس إلى غير ذلك من غزوات الرسول .

أما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعدما بويع بالخلافة أيام الجمل وصفين والمروان . فشجاعته كانت مثالية ، ففي يوم الجمل ثبت الثريخان وأشروعوا الرماح بعضهم في صدور بعض ، وعندما اشتد القتال زحف الإمام نحو الجمل بنفسه في كتيبة من المهاجرين والأنصار وحوله بنوه ثم حمل . ففاصل في عسكر الجمل حتى طحن العسكر ،

ثم رجع ، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فقال له أصحابه وبنوه : نحن نكفيك ، فلم يجب أحداً منهم ، ولا يرد إليهم بصره ، وظل يزأر زئير الأسد ، ثم حمل حملة ثانية وحده فدخل وسطهم يضربهم بالسيف قدماً قدماً ، والرجال تفرّ من بين يديه ، وتنحاز عنه يمناً ويسرة حتى خضب الأرض بدماء القتلى ثم رجع ، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، فاجتمع عليه أصحابه وناشده الله في نفسه وفي الإسلام ، فقال : « والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة » ، ثم قال لمحمد : هكذا تصنع يابن الحنفية ، فقال الناس : من الذي يستطيع يا أمير المؤمنين ، وكان في أوائل أيام « صفين » يسمّر الليل كله إلى الصباح يعبئ الكتب ويؤمر الأمراء ، ويعقد الألوية ، وهو الذي لبس يوم صفين سلاح العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطاب ، وقتل اللخمين والحميري الذين لم يكن في الشام أشهر منهم بالبأس والنجدة .

١٠ - الجهاد في سبيل الله : وهو بحق سيد المجاهدين ، ويكنى وقعة بدر الكبرى التي قتل فيها سبعون من المشركين ، قتل على نصفهم . قال ابن أبي الحديد : أما الجهاد في سبيل الله فعلاوم عند صديقه وعدوه ، وأنه سيد المجاهدين ، وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ، ويقول ابن عبد البر في الاستيعاب : « أجمعوا على أنه شهد بدرًا والحديبية وسائر المشاهد ، وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخير بلاء عظيماً ، وأنه أغنى في تلك المشاهد ، وقام فيها المقاتم الكريم ، كان لواء رسول الله

صلى الله عليه وسلم معه ، ولما قتل مصعب بن عمير يوم أحد ، وكان اللواء بيده دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عليّ .

١١ - التورع عن البغى : كانت شجاعة الإمام من الشجاعات النادرة ، ويزيدها تشریفاً وجلالاً أنها ازدانت بأجمل الصفات وهي التورع عن البغى والاستمسك بالمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء ، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام .

فمن تورعه عن البغى مع قوته البالغة وشجاعته النادرة أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال ، وله مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن « لا تدعونى إلى مبارزة ، فإن دعيت إليها فأجب فإن الداعي إليها باغ ، والباغى مصروع » . وعلم أن جنود الخوارج يقارون عسكره ليحاربوه ، وقيل له : إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك فقال : « لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسيفعلون » .

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللد في العدا لم يكن ينازلم ولا يأخذ من تارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة ، فاتفق في يوم صفين أن يخرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كرز بن الصباح الحسيري ، فصاح بين الصفين : من يبارز ؟ فخرج إليه رجل من أصحاب عليّ فقتله ، ووقف عليه ونادى : من يبارز ؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟ فخرج إليه ثالث ، فصنع به صنيعه بصاحبيه ، ثم نادى

رابعة : من يبارز ؟ فأحجم الناس ، ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه ، وخاف الإمام على أن يشيع الرعب بين صفوفه ، فخرج إلى ذلك الرجل المدلل بشجاعته وبأسه ، فصرعه ثم نادى ندائه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال : « يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول : (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) ولولم تبدعونا ما بدأناكم » . ثم رجع إلى مكانه .

١٢ - الحلم والصفح : ويقول ابن أبي الحديد : « وأما الحلم والصفح فكان أحلم الناس عن مذنب . وأصفحهم عن مسي . وقد ظهر صحة ذلك يوم الحمل حيث ظفر بمروان بن الحكم . وكان أعدى الناس له وأشدهم بغضاً فصفح عنه . وكان عبد الله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد ، وكان عليه السلام يقول : « ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى شب ابنه عبد الله » ، فظفر به يوم الحمل فأخذه أسيراً فصفح عنه . وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الحمل بمكة ، وكان له عدواً ، فأعرض عنه ، أما إكرامه لأُم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها فقد بعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن بالسيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأفقت وقالت : « هتك سرى برجاله وجدده الذين وكلهم بي » فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها : إنما نحن نسوة . وحاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيف

وسبوه ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ، ونادى مناديه :
 ألاّ يجhez على جريح ، ولا يقتل مستأسر ، ومن أتى سلاحه فهو آمن
 ومن نخبز إلى عسكر الإمام فهو آمن . ولم يأخذ من أنقالمهم ، ولا سبي
 ذراريهم ، ولا غنم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كل ذلك لفعل ،
 ولكنه أبى إلا الصفح والعمو .

١٣ - العلم والفصاحة والبلاغة : إمام الفصحاء وسيد البلغاء ،
 وعن ابن عباس أنه قال : « والله لقد أعطى عليّ بن أبي طالب تسعة
 أعشار العلم ، وإيم الله لقد شارككم أو شاركهم في العشر العاشر » ،
 وكفى في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم أو مدينة الحكمة
 وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأتها من بابها » .

وروى أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء بسنده عن علي بن
 أبي طالب رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا
 دار الحكمة وعليّ بابها » .

وقد أفاء الله عليه نعمة العلم والحكمة ، فكان أعلم الناس بالسنّة
 وأقضاهم . عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لعلّي : « تختصم الناس بسبع ، ولا يحاجك أحد من قريش ، أنت
 أولهم إيماناً بالله ، وأدناهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله . وأتسمهم
 بالسوية ، وأعدلهم في الرعية ، وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله
 منزلة » .

ويقول الإمام : « أسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسى بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة ، وفضل مائة إلا أنباتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها » ، وعن المسعودي أنه حفظ الناس عنه أربعمائة ونيفاً وثمانين خطبة يوردها على البديهة ، وقال الشريف الرضى في خطبة نهج البلاغة « كان أمير المؤمنين رضى الله عنه مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته سار كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ . . . » .

ولما قال ابن أبي محضن لمعاوية : « جئتك من عند أعيان الناس ، قال له : ويحك ، كيف يكون أعيان الناس ، فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره » . ويكنى نهج البلاغة دلالة على أنه لا يجارى في الفصاحة ولا يبارى في البلاغة .

ويقول الإمام : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع » . قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين : قال علي بن أبي طالب : قيمة كل امرئ ما يحسن ، ثم قال فلو لم تقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ومجزية مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مقصرة على الغاية . وقال ابن عائشة : ما أعرف كلمة بعد كلام الله ورسوله أخصر لفظاً ولا أعم نفعاً من قول عليّ « قيمة كل امرئ ما يحسن » . وفي البيان والتبيين قيل لعلي بن أبي طالب

رضى الله تعالى عنه : كم بين السماء إلى الأرض قال دعوة مستجابة ،
فقالوا كم بين المشرق إلى المغرب قال مسيرة يوم للشمس .

وفي الاستيعاب بسنده عن سعيد بن المسيب : ما كان أحد من
الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب . وعن أبي الطفيل شهدت
علياً يخطب وهو يقول : « سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ،
وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار أم
في سهل أم في جبل » ، ولا شك أن الإمام كان عنده علم القرآن والتوراة
والإنجيل ، يقول ابن أبي الحديد : روى المدائني قال خطب عليه السلام
فقال : لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين
أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم .

١٤ - الإمام على أشعر الصحابة :

عن الجاحظ في كتاب البيان والتبيين وفضائل بني هاشم والبلاذري
في أنساب قريش أن علياً أشعر الصحابة وأفصحهم وأخطبهم وأكثبهم ،
وعن تاريخ البلاذري كان أبو بكر يقول الشعر وعمر يقول الشعر وعثمان
يقول الشعر وكان على أشعر الثلاثة ، ويؤيد هذا الشعبي وسعيد بن المسيب .
والذي لا شك فيه أن الإمام كان ينظم الشعر ويمسح النظر فيه ،
وكان نقده للشعر نقد علم بصير يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف
وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب .

قال عليه السلام يوم صفين وقد بالغت في نصره همدان . ويقول
ابن أبي الحديد في شرح النهج إنه من الشعر الذى لا يشك أن قائله
الإمام :

فوارسها حمر العيون دواى	لما رأيت الخيل تفرح بالقنا
نعمامة دجن ملبس بقتام	وأقبل رهج في السماء كأنه
وكندة في لحم وحى جذام	ونادى ابن هندذا الكلاع ويحصبأ
إذا ناب أمر جنى وحسامى	فيمت همدان الذين هم هم
فوارس من همدان غير لثام	دعوت فلبانى من القوم عصبه
غداة الوغى من شاكر وشبام	فوارس من همدان ليسوا بعزل
وفهم وأحياء السبيع وسام	ومن أرحب الشم المطاعين بالقنا
ذوو نجدات في اللقاء كرام	ومن كل حى قد أتتى فوارس
وبأس إذا لاقوا وجد خصام	لهمدان أخلاق ودين يزينهم

ويقول عليه السلام في ذم الناس :

وحولها الناس ما دامت بها الثمرة	المرء في زمن الإقبال كالشجرة
عنها عقوقاً وقد كانوا بها بره	حتى إذا ما عرت من حملها انصرفوا
دهراً عليها من الأرياح والغبره	وحاولوا قطعها من بعدما شفقوا
إلا الأقل فليس العشر من عشره	قلت مروات أهل الأرض كلهم
فربما لم يوافق خبُّره خبُّره	لا تحمدن امرأ حتى تجر به

وقال الإمام يذكر مبيته على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ليلة الهجرة :

وقيت بنفسى خير من وطئ الحصى
محمد لما خاف أن يمكروا به
وبت أراعيهم فتى يشدونى
وبات رسول الله فى الغار آمناً
أقام ثلاثاً ثم زمت قلائص
ومن طاف بالبيت العتيق وبالبحجر
فوقاه ربى ذو الجلال من المكر
وقد وطنت نفسى على القتل والأسر
هناك وفى حفظ الإله وفى ستر
قلائص يقرين الحصى أينما يفرى

وأورد الطبرى فى تاريخه ما قاله الإمام بعد رجوعه من أحد، وقد خضب
الدم يده إلى كتفه ومعه ذو الفقار فناوله فاطمة عليها السلام وقال خذى
هذا السيف فقد صدقتى اليوم . وأنشأ يقول :

أفاطمه هاك السيف غير ذميم
لعمري لقد قاتلت فى حب أحمد
وسينى يكفى كالثهاب أهزه
فمازلت حتى فض ربى جموعهم
فامست برعديك ولا بيلم
وطاعة رب بالعباد رحيم
أجذت به من عاتق وصميم
وحتى شفيننا نفس كل حلیم
١٥ - معرفة القضاء والفرائض :

عن ابن مسعود : « أن أقصى أهل المدينة على بن أبى طالب » وسنده
عنه : أعلم أهل المدينة بالفرائض على بن أبى طالب ، وعن عمر أنه
قال : « على أقضانا » . وروى أبو نعيم الأصفهاني فى حلية الأولياء
بسنده عن على : « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقلت

يا رسول الله تبعثني إلى اليمن ويسألونني عن القضاء ولا علم لي به ، قال ادن ، فدنوت فضرب بيده على صدرى ثم قال : اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ، فلا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت في قضاء بين اثنين بعده .

ودخل ضرار بن ضمرة الكنانى على معاوية . فقال : صف لي علياً ، قال اعفى . قال : لتصفه قال : أما إذ لا بد من وصفه فإنه كان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقاب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب ، وكان فينا كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، ويلبينا إذا دعواناه ، وينبنا إذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبه له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظام أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيت في بعض مواقفه — وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه — قابضاً على لحيته يتململ تملل السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا يا ربنا ، يتضرع إليه ثم يقول : « يا دنيا غرى غرى ، ألى تعرضت أم إلى تشوقت ؟ هيهات هيهات ! قد بنتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك

كبير ، وعيشك حقير ، آه آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق !» .

١٦ - زهده :

قال الشريف الرضى فى مقدمة نهج البلاغة فى على رضى الله عنه :
 « ومن عجائبه التى انفرد بها وأمن المشاركة فيها أن كلامه فى الزهد والمواعظ
 إذ تأمله المتأمل وخلع من قلبه أنه كلام مثله ، ضمن عظم قدره ،
 ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك فى أنه من كلام
 من لا حظ له فى غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، وقد قبع
 فى كسر بيت ، أو انقطع فى سفح جبل ، لا يسمع إلا حسه ولا يرى
 إلا نفسه . »

وفى أسد الغابة ، بسنده عن عمار بن ياسر سمعت رسول الله صلى
 الله عليه وسلم يقول لعلى بن أبى طالب : يا على ، إن الله عزو وجل
 قد زينك بزينة لم يترين العباد بزينة أحب إليه منها : الزهد فى الدنيا ،
 فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً ، ولا تنال الدنيا منك شيئاً ، وهب لك
 حب المساكين ورضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً ، فطوبى لمن أحبك
 وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذب عليك . وقد قال عمر بن
 عبد العزيز : « أزهّد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب . » وقال سفيان :
 « إن علياً لم بين آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة . »
 وعن الحسن بن على أنه قال : « لم يترك أبى إلا ثمانمائة درهم أو

سبعمائة درهم فضلت من عطائه كان يعدها لخدم يشتريها لأهله .
وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على عليّ
عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذنتي حموضته وكسر يابسة ،
فقلت : يا أمير المؤمنين أنا أكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ،
كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أحسن من هذا - وأشار
إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألقى به » . وكان وهو أمير
المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه الزهراء بيديها - وكان يحتم على الجراب
الذي فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم » .

وعن عبد الله بن أبي الهذيل قال : « رأيت علياً خرج وعمايه قميص
غليظ دارس إذا مدكم قميصه باغ إلى الظفر ، وإذا أرسله صار إلى
نصف الساعد . وفي « أسد الغابة » بسنده عن رأي عليّ عليه السلام
إزاراً غليظاً قال اشتريته بخمسة دراهم فن أربحني فيه درهماً بعته .
وفي « حلية الأولياء » عن الأرقم قال : رأيت علياً وهو يبيع سيفاً له
في السوق ، ويقول : من يشتري مني هذا السيف ؟ فوالذي فلق الحبة
لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان
عندي ثمن إزار ما بعته .

هذا هو الزهد، ولم يعرف أحد من الخلفاء أرهد منه في لذة دنيا
أو سبب دولة .

العدالة :

إن زهده وعدله لا يمكن استقصاؤهما ، وامتاز الحكيم في عهد الإمام بالمساواة ، فالناس في المحقوق سواء لا محاباة لقوى ولا إجحاف بضعيف ، وقد عمد إلى القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء فانزعها من القابضين عليها وردها إلى بيت مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنة المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك به الإمام لرددته » . فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيّق .

ومن وصاياه لولاته : « أنصفوا الناس من أنفسكم ، واصبروا لحوائجهم ، فإنهم خزان الرعية ، ولا تجسموا أحداً عن حاجته ، ولا تجسوه عن طلبته ، ولا تبيعن الناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعملون عليها ولا عبداً ، ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم ، ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات « امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخرج بالتحية لهم ثم تقول : عباد الله : أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه ؟ فإن قال قائل لا فلا تراجع . وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه وتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية

أو لابل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرون بهيمة ولا تفزعنها ولا تسون صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله في ماله فاقبض حق الله منه ، فإن استقالك فأقله .

أما دستوره في الولاية والعمال ، فيتين مما قاله للأشتر النخعي : « انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختياراً ولا تهلم محاباة وأثرة ، فإنهم جداع من شعب الجور والحيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام ، فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل في المطامع لإسرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو تلموا أمانتك . ثم تفقد أعمالهم وأبعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم فإن تعاملك في السر لأموالهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية » .

أما دستوره في تحصيل الضرائب فيتأخص فيما كان يكتبه إلى واليه : « تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب

الحراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الحراج بغير عمارة
أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا وإنما يؤتى خراب
الأرض من إعواز أهلها . وإنما يعوز أهلها إسراف الرلاة على الجميع
وسوء ظهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالمعبر .

وقد بلغ من عظيم عدل الإمام أنه وجد مع المال الذي جاء من
أصبهان رغيفاً فقسمه سبعة أجزاء كما قسم المال وجعل على كل جزء جزءاً .
وفي أسد الغابة : بسنده عن رجل من ثقيف قال استعملني على
ابن أبي طالب على مدرج سابور فقال : لا تضربن رجلاً سوطاً في
جباية درهم ، ولا تبيعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة
يعتملون عليها ، ولا تقيمن رجلاً قائماً في طلب درهم ، قلت : يا أمير
المؤمنين إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك ، قال : وإن رجعت
ويحك إنما أمرنا أن تأخذ منهم العفو يعني الفضل . وهو أول من ساوى
بين الناس في العطاء ، وكان يأخذ كأحدهم ، وقصته مع أخيه عقيل -
حين طلب منه زيادة في عطائه فقال له اصبر حتى يخرج عطائي فلم
يقبل ، فأبى أن يعطيه أكثر من عطائه - معروفة ، وكذلك خبره مع
ولده الحسن حين استقرض شيئاً من غسل بيت المال ومع ابنته حين
استعارت عقداً من بيت المال .

القرآن الكريم والإمام علي

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من الأيام الظهر ، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً فرفع السائل يديه إلى السماء وقال : اللهم اشهد أني سألت في مسجد نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فلم يعطني أحد شيئاً ، وكان علي رضي الله عنه في الصلاة راکعاً فأومأ إليه بخصره اليمنى وفيها خاتم ، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خصره ، وذلك بمرأى من النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى السماء وقال : اللهم إن أخى موسى سألك فقال :

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي ، هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي) . فأنزلت عليه قرآناً سَنَشُدُّ عُضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَّا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا . اللهم وإني محمد نبيك وصفيك ، اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي عالياً أشد به ظهري . قال أبو ذر رضي الله عنه : فما أتم دعاءه

حتى نزل جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال يا محمد اقرأ :
 (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
 وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) .

ويروى أن حسان بن ثابت قال :

أبا حسن تغديك نفسى ومهجتى وكل بطيء فى الهدى ومسارع
 أيذهب سعيى فى مديحك ضائعاً وما المدح فى جنب الإله بضائع
 فأنت الذى أعطيت إذ كنت راکعاً فدتك نفوس القوم يا خير راکع
 فأنزل فىك الله خير ولاية فثبتها فى محكمات الشرائع

وسبب هذا الشعر ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما ، أيضاً
 فى سبب نزول هذه الآية قال : أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من
 قومه ممن قد آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا يا رسول الله إن
 منازلنا بعيدة ، فلا نجد أحداً يجالسنا أو يخالطنا من دون هذا المسجد ،
 وإن قومنا لما رأونا قد حدثنا الله ورسوله ، وتركنا دينهم أظهروا العداوة
 لنا وأقسموا ألا يخالطونا ولا يؤاكلونا ، فشق علينا ، فبينما هم يشكرون إلى
 النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله
 عليه وسلم :

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
 وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) . وإذا بالمؤذن يؤذن بالصلاة ، صلاة

الظهر، فخرج رسول الله إلى المسجد والناس يصلون بين راكم وساجد، وقائم وقاعد، فإذا مسكين يسأل فدخل الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: أأعطاك أحد شيئاً؟ قال نعم، قال من؟ قال ذلك الرجل القائم، ذلك علي بن أبي طالب! فكبر النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك وقرأ: (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ). فأنشأ حسان بن ثابت ما ذكرناه، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان مع علي رضى الله عنه أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً وبدرهم علانية، فأنزل الله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

وروى أنه لما نزلت (وَتَعْبَهُمَا أُذُنٌ وَعَايَةٌ). قال الرسول عليه الصلاة والسلام: سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، ففعل، فكان علي رضى الله عنه يقول: ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاماً إلا وعينته وحفظته ولم أنسه.

وفى تفسير الطبرى: حدثني عبد الله بن رستم، سمعت بريدة

يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى : « يا على إن الله أمرني أن أدنّيك » . وذكر مثله . وروى الطبرى فى تفسيره أيضاً ، قال حدثنا على بن سهيل ، حدثنا الوليد بن مسلم عن على بن حوشب ، سمعت مكحولاً يقول : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَتَعَبَّيْهَا أَذُنٌ وَأَعْيِيَّةٌ) ، ثم التفت إلى على فقال : سألت الله أن يجعلها أذنك ، قال على : فما سمعت شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنسيته .

وفى حلية الأولياء بسنده عن عمر بن على بن أبى طالب ، عن أبى على عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا على « إن الله أمرني أن أدنّيك وأعلمك نعى » وأنزات هذه الآية : (وَتَعَبَّيْهَا أَذُنٌ وَأَعْيِيَّةٌ) ، فأنت أذن واعية لعلى .

ونقل الإمام أبو إسحق الثعلبى رحمه الله فى تفسيره : أن سفيان ابن عيينة رحمه الله تعالى : سئل عن قوله تعالى :

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) ، فىمن نزلت ؟ فقال للسائل ، لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك ، حدثنى أبى عن جعفر ابن محمد . عن آبائه رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان « بغدير خم » نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد على رضى الله عنه وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ، فشاع ذلك فطار فى البلاد وبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهرى ، فأتى رسول الله صلى الله عليه

وسلم على ناقة له فأناخ راحلته ونزل عنها، وقال يا محمد: «أمرتنا عن الله عز وجل: أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله فقبلنا منك، وأمرتنا أن نصوم رمضان فقبلنا، وأمرتنا بالحج فقبلنا، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت ابن عمك تفضله علينا، فقلت "من كنت مولاه فعلى مولاه" ، فهذا شيء منك أم من الله عز وجل؟». فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي لا إله إلا هو إن هذا من الله عز وجل» فولى الخثر ابن النعمان يريد راحلته وهو يقول: «اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم»، فها وصل إلى راحلته حتى رماه الله عز وجل بحجر سقط على هامته فخرج من دبره فقتله، فأنزل الله عز وجل: (سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ).

أحاديث الرسول عن الإمام علي

أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام عن الإمام علي — وبخاصة في فضله ومحبه — كثيرة ومتواترة ، وعن الصديق رضي الله عنه في حديثه المشهور الذي سمي حديث الخيمة قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة وهو يتكىء على قوس عربية ، وفي الخيمة على وقاطمة والحسن والحسين ، فقال : « يا معشر المسلمين ، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولي لمن والاهم ، لا يحبهم إلا سعيد الجند طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقي الجند ردىء الولادة .
في سبق إسلام علي كرم الله وجهه :

بينت فيما سبق بما لا يدع مجالاً للشك أن الإمام أول من أسلم ، فتقدمه في الإسلام من الأمور الواضحة لمن رجع إلى السنة النبوية وإلى أقوال الصحابة .

الترمذي بسنده عن أنس بن مالك : قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، يوم الاثنين وصلى على يوم الثلاثاء . وعن أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صليت أنا أول يوم الاثنين ، وصلت خديجة آخر يوم الاثنين ،

وصلى على يوم الثلاثاء من الغد ، وصلينا مستخفين قبل أن يصلى معنا أحد سبع سنين وأشهرًا .

وعن عمرو بن ميمون عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أول من أسلم من الناس بعد خديجة على بن أبى طالب ، ويقول أحد الشعراء فى صفين :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان مشتبهاً جزاك ربك منا فيه إحسانا
نفسى الفداء لأولى الناس كلهم بعد النبي على الخير مولانا
أخى النبي ومولى المؤمنين معاً وأولى الناس تصديقاً وإيماناً

وابن المغازلى بسنده عن عبد الرحمن مولى أبى أيوب الأنصارى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلت الملائكة على وعلى على سبع سنين ، وذلك أنه لم يصل معى أحد غيره . وعن سلمان موفى ابن أحمد الثعلبي بسنده عن عفيف الكندى ، قال : كنت تاجراً فقدمت مكة أيام الحج فتزلت فى دار العباس بن عبد المطلب ، فبينما أنا والعباس إذ جاء رجل شاب استقبل الكعبة ، وجاءه غلام فقام عن يمينه ، وجاءت امرأة فقامت خلفه ، فركعوا وسجدوا ، ثم رفعوا رؤوسهم فقلت : يا عباس أمر عظيم ، فقال : أمر عظيم ، هذا محمد ابن أخى يقول إن الله بعثه رسولا وإن كنوز كسرى وقيصر ستفتح على يدى من آمن به ، وهذه زوجته خديجة بنت خويلد ، وهذا الغلام

ابن أخى على بن أبي طالب ، وعن ابن مسعود قال أول شيء علمته من أمر النبي صلى الله عليه وسلم أنى قدمت من مكة فنزلت دار العباس ابن عبد المطلب ، فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا ، ومعه صبي وامرأة ، فاستلم الحجر ثم استلمه الغلام ثم المرأة ، ثم طافوا بالبيت سبعاً ، فقلنا يا عباس إن هذا الدين لم نعرفه فيكم قال هذا ابن أخى محمد ، والمرأة زوجته خديجة بنت خويلد ، والغلام على بن أبي طالب . ما على وجه الأرض أحد يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة .

النظر إلى وجه الإمام عبادة :

عن أبي سعيد الخدرى ، عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النظر إلى على عبادة . وقال ابن الأثير فى النهاية فى حديث عمران بن حصين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النظر إلى وجه على عبادة ، وقيل معناه أن علياً كان إذا برز قال الناس لا إله إلا الله ما أشرف هذا الفتى ، لا إله إلا الله ما أعلم هذا الفتى ، لا إله إلا الله ما أكرم هذا الفتى ، أى ما أتقى ، لا إله إلا الله ما أشجع هذا الفتى ، فكانت رؤيته تحملهم على كلمة التوحيد .

فصاحته ودرايته :

عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن ابن عوف ، يا عبد الرحمن ؛ أتم أصحابي ، وعلى بن أبي طالب مني وأنا من عليّ ، فمن قاسه بغيره فقد جفاني ، ومن جفاني آذاني ، ومن آذاني فعليه لعنة ربى ، يا عبد الرحمن إن الله أنزل على كتاباً مبيناً ، وأمرني أن أبين للناس ما نزل إليهم ما خلا على بن أبي طالب فإنه لم يحتاج إلى بيان لأن الله تعالى جعل فصاحته ودرايته كدرايتي ، ولو كان الحلم رجلاً لكان عليّاً ، ولو كان العقل رجلاً لكان حسناً ، ولو كان السخاء رجلاً لكان حميماً ، ولو كان الحسن شخصاً لكان فاطمة بل هي أعظم ، إن فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرافاً وكرماً .

وذكر اليعقوبى في الجزء الثانى من تاريخه أن النبى خرج ليلا بعد رجوعه من حجة الوداع منصرفاً إلى المدينة ، فصار إن موضع بالقرب من الجحفة يقال له : « غديرخم » لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ، وقام خطيباً ، وأخذ بيد على بن أبي طالب وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . » وجاء فى التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى أن عمر بن الخطاب لقي عليّاً بعد ذلك فقال له : « هنيئاً لك يا بنى أبي طالب ، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة » ، وذكر أبو تمام الطائى هذا اليوم فى قصيدة قال فيها :

ويوم الدوح دوح غدیر خم - أبان له الولاية لو أطيعا
ولم أر مثل ذلك اليوم يوماً ولم أر مثله حقاً أضيعا

قال الرسول : إن الإمام علياً أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين . روى أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء بسنده ، عن أنس في حديث ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس ، أول من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين » وسيد المسلمين . . . قال أنس : قلت : اللهم اجعله رجلاً من الأنصار ، وكنتمته ، إذ جاء علي ، فقال : من هذا يا أنس ؟ فقلت : علي ، فقام مستبشراً فاعتنقه ، ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه ، ويمسح عرق علي بوجهه ، قال علي : يا رسول الله ، لقد رأيتك صنعت شيئاً ما صنعت بي من قبل ، قال : وما ينعني ، وأنت تؤدي عني وتسمعهم صوتي ، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدى ؟

وروى الحاكم في المستدرک ، وصححه بسنده عن أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوحى إلى في علي ثلاث : أنه سيد المسلمين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلق عليه سيد العرب . وعن السيدة عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادعوا لي سيد العرب » فقلت : يا رسول الله ، أأنت سيد العرب ؟ قال : « أنا سيد ولد آدم ، وعلي سيد العرب » .

وعن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
أخذ بصبيح علي بن أبي طالب ، وهو يقول : « هذا أمير البرة ،
قاتل الفجرة ، منصور من نصره ، مخذول من خذله » .

النبي كان يشعر بنوع من الإخاء الإمام علي :

لا يختلف الرواة والمحدثون أن النبي صلى الله عليه وسلم طالما ردد
هذه العبارة وهو ينظر إلى علي : « هذا أخي » ، وجاء في الحديث
عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في محفل
من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم في علمه ، ونوح في همه ، وإبراهيم
في خلقه ، وموسى في مناجاته ، وعيسى في سنه ، ومحمد في هديه وعلمه ،
فانظروا إلى هذا المقبل » ، فتناول الناس بأعناقهم ، فإذا هو على
ابن أبي طالب . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : « حبك إيمان ، وبغضك نفاق ، وأول
من يدخل الجنة محبك ، وأول من يدخل النار مبغضك » . وأخرج
الترمذي عن ابن عمر قال : آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ،
فجاء علي تدمع عيناه ، فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك
ولم تؤاخ بيني وبين أحد ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أنت أخي
في الدنيا والآخرة » . وفي رواية أخرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم
قال : « أنت أخي وصاحبي » . ويقول ابن عباس في ذلك : « لعلي

أربع خصال ليست لأحد غيره . هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف ، وهو الذي صبر معه يوم فر منه غيره ، وهو الذي غسله وأدخله قبره^(١) . وهذه الخصال والمزايا هي التي تفرض له هذه المكانة فيختاره النبي صلى الله عليه وسلم صاحباً وأخاً .

حب الرسول للإمام :

ومهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث التي ذكرناها فالذي يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم أن علياً كان أحب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق . لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يغمر بالحلب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين ، فأى عجب أن يخص بالحلب من بينهم إنساناً كان ابن عمه الذي كفله وحماه ، وكان ربيبه الذي أورشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله في الفراش ليلة الهجرة التي همّ المشركون فيها بقتل من بييت في فراشه ، وكان نصيره الذي أبلى أحسن البلاء في جميع غزواته ، وتلميذه الذي علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئاً في سنه .

حب النبي صلى الله عليه وسلم للإمام حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل

(١) الاستياب .

الرواة ، ولا إلى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف ، ومما لا خلاف فيه كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يكتفى بحبه إياه ، بل كان يسره ويرضيه أن يحبه إلى الناس ، وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويحفوه^(١) .

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الإمام في سرية ليقبض الخمس فاصطفى منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك رسول الله ، وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدعوا بالرسول عليه الصلاة والسلام ، فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ، ثم انصرفوا إلى رحلم ، فقام أحد الأربعة ، فحدث الرسول ما رأى ، فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه ، فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه ، فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه ، فقال : « ما تريدون من علي ؟ ما تريدون من علي ؟ ما تريدون من علي ؟ على مني وأنا منه ، وهو ولي كل مؤمن بعدي » .

وقال لأحدهم في روايات أخرى : أتبغض علياً ؟ قال : نعم ، قال : لا تبغضه ، فإن له الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التي اصطفاها . . . لا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حباً .

وبعث رسول الله الإمام إلى اليمن فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم لإبل الصدقة ليربحوا إبلهم ، فأبى ، فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم ،

(١) عقرية الإمام : للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد .

وتولى شكايته سعد بن مالك الشهيد ، فقال : يا رسول الله ؛ لقينا من على من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق . . . ومضى بعدد ما لقيه ، حتى إذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه وهتف به : « يا سعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قواك لأخيك على ؛ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله . وشكنا بعض الناس مثل هذه الشكوى فقام رسول الله فيهم خطيباً يقول لهم : « أيها الناس لا تشكروا علياً ، فوالله إنه لجيش في ذات الله » .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحب علياً ويحبه إلى الناس . سئلت السيدة عائشة : « أي الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : فاطمة . فقيل من الرجال ، قالت زوجها ، إن كان ما علمت صواماً قواماً .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي فجاء ، فقال له : « أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة ، من أحبك فقد أحبني ، وحبيبك حبيبي ، وحببي حبيب الله ، وعدوك عدوي ، وعدوي عدو الله ، طوبى لمن أحبك والويل لمن أبغضك » .

وعن عمار بن ياسر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا علي ، طوبى لمن أحبك وصدق فيك ، والويل لمن أبغضك وكذب فيك » .

وعن أنس بن مالك قال : « والله الذي لا إله إلا هو لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : عنوان صحيفة المؤمن من حب على بن أبي طالب » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو اجتمع الناس على حب علي بن أبي طالب لما خلق الله عز وجل النار » .
وعن أبي رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن علي : « من أبغضه فقد أبغضني ، ومن أبغضني فقد أبغض الله ، ومن أحبه فقد أحبني ، ومن أحبني فقد أحب الله » .

ويقول الإمام عليه السلام : « مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل وأنا مضطجع ، فأنى إلى جنبي ، فسجاني بثوبه ، فلما رآني قد ضعفت قام إلى المسجد يصلي ، فلما قضى صلاته جاء فرفع الثوب عني ثم قال : قم يا علي ، فقد برئت ، فقامت فكأني ما اشتكيت فقال ما سألت ربي شيئاً إلا أعطاني وما سألت الله شيئاً إلا سألت لك » وهذا الحديث يبين لنا منتهى العطف وقصارى الحب .

الرسول كان بهم بتدريب الإمام وكفالاته :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب علياً كما رأيت حباً عظيماً ، وكما ذكرت كان أحب الناس إليه ، ويقول الأستاذ العقاد : إنه كان يمهده له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات ، ولكن على أن تختاره الناس

طواعية وحباً ، لا أن يكون اختياره حقاً من حقوق العصبية الهاشمية ، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهداً اتقائه ولم يحد من خطر على الدين أشد من حذره أن يحسبه الناس سبيلاً إلى الملك والنوطة في بني هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا ، وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة ، لينفي هذه الظنة ، ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشئنة ، فالتزم في التمهيد للإمام وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة ، فأرسله في سرية إلى فدك لغزو قبيلة بني سعد اليهودية ، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام ، وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ويبين لهم حكم الدين في حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون إلى غزوة تبوك .

موقف الإمام علي بعد وفاة الرسول

عندما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم ذهل الناس ، وكانوا بين مصدق ومكذب ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه صاح في القوم : من قال إن محمداً قد مات ضربت عنقه ، إنه يكلم ربه كما فعل أخوه موسى من قبل . أما الصديق فكان حكيماً فقد قال : « بأياها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وتلا قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) .

أما الإمام عليّ ومعه لقيف كبير من بنى هاشم وغيرهم ، فكانوا يجانبون الجذث الشريف .

قال المفيد : ولم يحضر دفنه أكثر الناس لما جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر في أمر الخلافة : وفات كثيراً منهم الصلاة عليه لذلك .

وفي هذا الوقت قال العباس لعلی : امدد يدك بأبيك ، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان ، فأجابه علی ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم : لنا برسول الله يا عم شغل . وعكف على تجهيز الرسول وتكفينه لا يأبه بشيء من أمور الدنيا ولا تخرجه عما هو فيه دعوة القوم ليحضر مشاورتهم في شأن الخليفة ولا فيمن يكون الخليفة .

ونترك الإمام علياً رضي الله عنه ومشغوليته في تجهيز الرسول نرى أن الناس انقسموا بعد وفاة الرسول إلى عدة أحزاب : حزب سعد ابن عبادة رئيس الخزرج ، حزب الشيخين وهم جل المهاجرين ، حزب عليّ وهم بنو هاشم ومعهم قليل من المهاجرين منهم الزبير وكثير من الأنصار ، ويقول الطبري : إن أكثرهم أرادوا البيعة لعلی . ونضيف إلى هذه الأحزاب الثلاثة حزب عبيان من بني أمية ، وحزب سعد ابن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة .

ومن رأى الإمام علی أن ترشيح سعد بن عبادة حراً للناس . ولا يعد أن يكون سعد لما رأى تصميم المهاجرين على عدم إعطاء الحق لأهله طلبه لنفسه . ويقول ابن قتيبة في روايته : إن سعداً قال لابنه قيس : «إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامي لمرضى ، ولكن تلق مني قولي فأسمعهم» ، ففعل ، وذكر فضل الأنصار ونصرتهم الدين وإبواءهم الرسول ، وأنهم أحق الناس بهذا الأمر .

ويقول الطبري : إنه لما بلغ أبا بكر أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لبياعوا سعد بن عبادة جاء معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح ، فقال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فقال أبو بكر : منا الأمراء ومنكم الوزراء .

ويقول ابن قتيبة : فقام الحباب بن المنذر فقال : يا معشر الأنصار ، املكوا على أيديكم فإنما الناس في فيثكم وظلالكم ، ولن يجير مجير على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العز والثروة والعدد والنجدة ، وإنما ينظر الناس ما تصنعون ، فلا تختلفوا ، فيفسد عليكم رأيكم ، أنتم أهل الإيواء والنصرة ، وإليكم كانت الهجرة ، ولكم في السابقين الأولين مثل ما لهم ، وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم ، والله ما عبدوا الله علانية إلا في بلادكم ، ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم ، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم ، فأنتم أعظم الناس نصيباً في هذا الأمر ، وإن أبي القوم فنا أمير ومنهم أمير .

واشدد الخلاف ، فقام أبو عبيدة وقال : يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى ، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير . واشتدت المناقشة واشترك فيها بشير بن سعد (وهو والد النعمان بن بشير) ، وعمر ، وأبو عبيدة ، وأبو بكر . وأخيراً انتهت الأزمة كما يقول الطبري : « فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فباعوا ، فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، ابسط يدك نبايعك . وبذلك تمت

البيعة للصديق ، وبإيعه جميع المسلمين ما عدا بنى هاشم ، أو على الأخرى العباس وأولاده وعلى الذى لم يبرح دار الرسول حتى وسده مثواه الأخير ، وهو يبكى ويقول : « إن الصبر جميل إلا عنك يا رسول الله ، وإن الجرح لقبيح إلا عليك ، وإن المصاب بك بلليل وإنه قبلك وبعذك لجلل » .

وانصرف على غاضباً من الصورة التى تمت بها البيعة ، لأنه كان يعتقد أنه أحق بها من غيره ، وجاءه أبو بكر يحف به عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، ودعاه إلى البيعة فأنى ، وخرج الزبير بسيفه . وقال عمر : عليكم بالرجل فخذوه ، فأخذوا منه السيف . فقال له : ابن عم رسول الله وختنه على ابنته يريد أن يشق عصا المسلمين .

وقال العباس : ما أحد أولى بمقام رسول الله منه . قال على : أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبياعكم وأنتم أولى بالبيعة لى . أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليه بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ، أستم زعتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم ، لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة ، وسلموا إليكم الإمارة ، فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوعوا بالظلم وأنتم تعلمون .

عمر : إنك لست متروكاً حتى تباع .

علي : احلب حلباً لك شطره وشد له اليوم يردده عليك غداً .

أبو عبيدة : يا بن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشد احتمالاً واستطلاعاً ، فسلم لأبي بكر هذا الأمر ، فإنك إن تعش وبطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليك وحقيق ، في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصبرك .

علي : الله الله يا معشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فو الله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم . فاعتذر إليه أبو بكر بخوف الفتنة لو أختر ، ثم أشرف على الناس وقال : أيها الناس ، هذا علي بن أبي طالب لا بيعة لي في عنقه ، وهو بالخيار من أمره ، ألا وأنتم بالخيار جميعاً في بيعتكم ، فإن رأيتم لها غيري فأنا أول من يبايعه . فلما سمع ذلك الإمام علي زال ما كان قد داخله وصفت نفسه فقال : « أجل ، لا نرى غيرك . امدد يدك » ، فبايعه هو والنفر الذين كانوا

معه .

وهناك رواية ذكرها اليعقوبي وذكرها غيره من المؤرخين ، هي أن جماعة من المهاجرين والأنصار اجتمعوا مع علي بن أبي طالب الإمام على

في دار فاطمة بنت رسول الله يدعون إلى مبايعته ، وبينهم خالد بن سعيد يقول : « فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك » ، وبلغ أبا بكر وعمر اجتماعهم بدار السيدة الزهراء ، فأتيا في جماعة حتى هجموا الدار ، وخرج عليٌّ ومعه السيف . فلقيه عمر فصارعه فصصره ، وكسر سيفه ، ودخلوا الدار . فخرجت فاطمة رضى الله عنها وقالت : « لتخرجن أولاً كسفن شعري ولأعجننَّ إلى الله » ، فخرجوا وخرج من كان في الدار ، وأقام القوم أياماً ، ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع ، ولم يبايع علي إلا بعد وفاة فاطمة أي بعد ستة أشهر ، وقيل في رواية إنه بايع بعد أربعين يوماً .

وروى الطبري في تاريخه قال : « أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين ، فقال والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة ، فخرج عليه الزبير مصلاً بالسيف فعثر ، فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه .

وفي رواية أخرى أن عمر قال لعلي : إن لم تبايع أبا بكر لأحرقن دارك . قال علي : أو تحرقها وفيها ابنة رسول الله ؟ قال : أحرقها وفيها ابنة رسول الله . وفي ذلك يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم :

وقوله لعلي قائلها عمر أكرم بسامعها أنعم بملقبها
حرقت دارك لا أبقى عليك بها إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص يفوه بها أمام فارس عدنان وحامبها

فأذكرهما وترحم عند ذكرهما أعظم ألهوا في الكون تأليها

هذا هو المشهور عن موقف علي بن أبي طالب من بيعة أبي بكر ،
وينكر بعض المؤرخين هذا المشهور من تخلف بني هاشم أو غيرهم
من المهاجرين ، ويذكرون أن أبا بكر بويع بعد السقيفة بالإجماع .
ويروى الطبرى حديثاً بإسناده أن سعيد بن زيد سئل : أشهدت وفاة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قيل : فبقي بويع أبو بكر ،
قال : يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كرهوا أن يبقوا بعض
يوم وليسوا في جماعة ، قيل : أخالف عليه أحد ؟ قال لا ، إلا مرتد
أو من قد كاد أن يرتد ، لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الانصار ،
قيل : فهل قعد أحد من المهاجرين قال : لا ، تتابع المهاجرون على
بيعته من غير أن يدعواهم .

وفي رواية أن علي بن أبي طالب كان في بيته إذ جاءه من أنبأه
أن أبا بكر قد جلس للبيعة فخرج في قميص له ما عليه إزار ولا رداء
عجلاً كراهية أن يبطن عنها حتى يابعه ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه
فأتاه فتحلله ولزم مجلسه .

وهناك رواية أخرى تقول إن الصديق صعد المنبر عقب البيعة فنظر
في وجوه القوم فلم ير الزبير فدعا به فجاء ؛ فقال له : ابن عمه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وحواريه ، أردت أن تشق عصا المسلمين . فقال :

لا تريب يا خليفة رسول الله ، فقام فبايعه ، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً فدعا به فجاء ، فقال له : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين . فقال : لا تريب يا خليفة رسول الله ، فقام فبايعه .

ورواية أخرى أنه بعد وفاة السيدة الزهراء بستة أشهر أرسل الإمام إلى أبي بكر أن اثنا ولا يأتنا معك أحد ، وتلقاه وعنده بنو هاشم فقال : « إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا » .

والذي لا شك فيه أن الإمام كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقه ، وأنه لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبي عليه السلام إلى الرفيق الأعلى .

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره فرجع إلى سيرته وأحاديثه فترى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية في هذه الحالة من النفرة ، والنقمة ، ولا نجد في خطبه ومساجلاته التي ذكر فيها أبو بكر وعمر وعثمان كلمة تستغرب من مثله أو يتجاوز بها حد الحجة التي تنهض بحقه ، بل الغريب أنه لزم هذا الحد ولم يجاوزه إلى جمحة غضب تقلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لاثميه .

وقد أعان الخلفاء الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم بمجاملة كريمة بمسلكه ومقاله ، ولم يبد منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم ، ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رى بها كما يأنف العزيز الكريم ، وفي ذلك يقول معاوية : « ذكرت إبطائي عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهة لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك » .

وأولى أن يقال إن دلائل وفاته في حياتهم وبعد ذهابهم كانت أظهر من دلائل جفائه ، فإنه احتضن ابن أبي بكر محمداً أو كفله بالرعاية ، ورشحه للولاية حتى حسب عليه ، وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان .

بقي أن نقول إن بعض المؤرخين قد أحصى على الإمام أن الخلافة قد تأخرت نيفاً وعشرين سنة ، فلم يخلف النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يخلف أبا بكر وعمر . ويسارع العلامة الأستاذ عباس العقاد في الإجابة عن هذا بأن نرجع إلى العوائق التي حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها إليه ، لنعلم منها العائق الذي كان في أيدي الحوادث والعائق الذي كان في يديه أو كانت له قدرة معقولة عليه .

فكما رأيت أن الإمام أنكر إجحافاً أصابه في تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان يرى أن قرابته

من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده ، لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ،
 وما لا شك فيه أن شعوره هذا طبيعي في النفس الإنسانية كيفما كان
 حظها من الزهد والفقاعة ، لأن تحطيه مع هذه المزية التي ترشحه
 للبيعة ، يشبه أن يكون قدحاً في مزاياه الأخرى من علم وشجاعة ،
 وسابقة جهاد ، وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالة
 على الغض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح
 فيها ، والحط من مزاياها ، ومواجهتها بالنفرة والكراهة ، إلا أن الخلافة
 الإسلامية مسألة علمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يقيم فيها برأى واحد
 إذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء ، ويشاء القدر أن تكون المزية
 الأولى في ميزان على هي العائق الأول في سائر الموازين ، ومنها ميزان
 النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبية
 في قريش وفي القبائل العربية عامة ، أعلمه بخظر هذه العصبية على
 الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية
 تتوارثها عنه عصبية هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين ،
 وقد رضى في سبيل هذا المقصد الحكيم أن يجعل بيت أبي سفيان صنواً
 للكعبة في أمان اللاجئين إليه ، وأصهر إلى أبي سفيان ، ونذب ابنه
 معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كتبيه ، وربما حسن لديه
 أن تؤول الخلافة إلى على بعده إذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على

أن تكون خلافته اختياراً مرضياً ، كاختيار غيره من أنصاره ، وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد . وقد بينت ذلك سابقاً .

أما العائق الثاني فيرى بعض المؤرخين أن قريشاً كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترن بها العصبية التي أوقعت التنافس بين بيوتها وبنى هاشم ، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بني أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية^(١) ، والوليد بن عتبة خاله ، وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه في يوم بدر عدا من قتلهم في الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقرارهم له هذه التراث بعد دخولهم في الإسلام ، وزادهم حقداً عليه أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلهم من الكفار ، وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد : « كأنها حالة لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه من إظهار ما في النفوس ، وهيجان ما في القلوب ، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله » .

وقد علم الإمام هذا من قريش عندما يشس من مودتها وابتلى بالصریح

(١) وفي ذلك قال الإمام لمعاوية : « وعندي السيف الذي أعضضت به أخاك وتذاك وجدك يوم بدر » . وقيل إن الإمام قتل بيد ٣٥ رجلاً من المشركين ، ومنهم العاص بن سعيد بن العاص الأموي .

والدخيل من كيدها فقال : « مالى ولقريش ؟ أما والله لقد قتلتم كافرين
ولأقلمتم مفتونين ، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته ،
فقل لقريش فلتضحضج ضجيجها » .

أما الذين سبقوا الإمام إلى الخلافة فهم : أبو بكر وعمر وعثمان ،
وهم من شيوخ الصحابة ، فإذا خرجت العصبية الهاشمية من مجال الترجيح
كأنوا هم أقرب الناس إلى أن يختارهم المسلمون ، وذلك للسن ، فعند
وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت سن الإمام لا تتجاوز الثلاثين ،
وإن كان فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق ، فقد باع الإمام
الخامسة والأربعين ، ولكن ما كاد الإمام يبلغ هذه السن حتى بدأت
المطامع الدنيوية تزداد ، واعتقد الطامعون أن في ابن عثمان بعض الأمل
وفضلوا هذا على شدة الإمام ، وعسر حسابه ، وزيادة على ذلك بقيت
الحفوة بينه وبين قریش على حالها ، لم يكفكف منها تقادم العهد ،
كما قال ابن أبي الحديد .

هذه هي العوائق التي صادفتها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فهل كان الإمام مستطيعاً أن يخلف أحداً بعد وفاة الرسول بعمل
من جهده وسعى من تدبيره ، فأعياه السعى والتدبير ، فلم يكن الإمام
مشغولاً عن نظرة العصبية التي نظرت بها قریش إلى السيادة الهاشمية ،
كذلك هو غير مشغول عن سنة التي تأخرت به عن الوصول إلى الخلافة ،
ولو كان في زماننا هذا لكانت عقبه السن ميزة تؤهله لتولي الخلافة .

بيعة الإمام عليّ

في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعندما ساءت الحالة ، جمع الخليفة بعض وزرائه للتشاور في إصلاح الحال ، ولم يكن الإمام علي رضى الله عنه بين المدعويين ، بل كان المدعويين إلى الاجتماع من مخالفيه وهم : معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر ، وهم الولاة الذين شكاهم علي وجمهرة الصحابة ، قال لهم الخليفة الثالث : « إن لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائي ونصحاؤي وأهل ثقتي ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ » .

وكان رأيهم جميعاً رأياً فيه الغرض والمصلحة الشخصية . ولننظر إلى المحاورة التي دارت ، وإلى التناقض في كلام عمرو بن العاص كنموذج لما كان يجري في هذا الاجتماع .

قال عمرو بن العاص وهو بين السخط على ولاية فاتها ، والطمع في ولاية يرجوها : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم

أن تعدل ، فإن أبيت فاعترمت أن تعتزل ، فإن أبيت فاعترمت عزماً
وامض قدماً» .

ثم اسمع إلى قوله بعد أن تفرق المجتمعون وانفرد بالخليفة وحده ،
وقال : « والله يا أمير المؤمنين لآنت أعز على من ذلك ، ولكنى علمت
أنه سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا . ،
فأقود إليك خيراً ، وأدفع عنك شراً . . . » .

هذا هو جو الاجتماع الذى عقد عند الخليفة ، وهؤلاء هم الوزراء ،
ومن ورأهم مروان بن الحكم ، وهو كفيل بأن يمنع كل ناصح أمين
عن الخليفة ، وفي مقدمتهم الإمام على رضى الله عنه .

وتطورت الحالة من سيئ إلى أسوأ ، وكانت ثورة ، وكان الثوار
قد وفدوا إلى المدينة المنورة من مصر والكوفة والبصرة ، وبلغ السيل
الزبى ، كما قال عثمان رضى الله عنه ، فكتب إلى على يذكر له ذلك
ويقول : « إن أمر الناس ارتفع فى شأنى فوق قدره ، وزعموا أنهم لا
يرجعون دون دى ، طمع فى من لا يدفع عن نفسه .

فإن كنت مأكولاً فكن خيراً أكلى وإلا فأدركنى ولما أمزق»

وانتهت الثورة على الخليفة الثالث رضى الله عنه بمقتله ، ولم يرحمه
الثوار ، وحاصروه فى داره أربعين يوماً ، ولن نتعرض فى هذه العجالة
إلى الأسباب التى أدت إلى قتله ، ولكن الثوار لم يذكروا له أياديه البيضاء

على الإسلام والمسلمين ، ولم يذكروا له أن جيوشه صانت هيبة الدولة الإسلامية بعد مقتل الفاروق عمر ، ولم يذكروا له أنه جمع المصحف الشريف على ترتيبه الحالي .

وعندما نقل الخبر إلى المسجد ، وفيه كان على جالساً في نحو عشرة من المصلحين راعه منظر القادم وسأله : ويحك ! ما وراءك ؟ قال : والله لقد فرغ من الرجل ، فصاح به : تباً لكم آخر الدهر ! وأسرع إلى دار الخليفة المقتول فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتم على الباب ؟ فأجاب طلحة : لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل ، ولكنها الفتنة ، وكان من رأى الإمام على أن يقاتل دفاعاً عن الخليفة المحصور ، واستأذن أمير المؤمنين عثمان في القتال ولكنه رفض خشية أن تقوم بين المسلمين حرب أهلية ، فأثر أن يضحى بنفسه ولا يكون سبباً في حرب شعواء ، واجتمع المهاجرون والأنصار ، ومعهم الثوار وبقية الجماهير ، ومن بينهم طلحة والزبير ، فهرعوا إلى الإمام على وهو معتزل في داره ، فأحاطوا به من كل جانب ، وقالوا له : « يا أبا الحسن إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب قرابة من رسول الله » ، فقال الإمام : لا حاجة لي في أمركم ، فن اخترتم رضيت به ، ولا تريدوني ، فأني لكم وزيراً خيراً لكم مني

أميراً : فقالوا : والله لا نعلم أحداً أحق بها منك ، وما نختار غيرك ، فقال الإمام : دعوني والتمسوا غيري » ، ثم أعرب لهم عن السر في توقفه في قبول الخلافة قائلاً : « أيها الناس ؛ إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول » . وقال أيضاً : « إني إن أجبتمكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم ، ألا وإني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه » . ويصف أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب إصرار المجتمعين على بيعته وإقبالهم عليه بقوله : « فما راعني إلا والناس كعرف الصبيغ ^(١) يتناولون علي من كل جانب ، حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفائي ^(٢) مجتمعين حولي كربيضة الغنم ^(٣) .

وأخيراً قال لهم : « إن بيعتي لا تكون سرّاً ، ولكن ائتوا إلى المسجد ، فمن شاء أن يبايعني يبايعني » . وخرج إلى المسجد فبايعه الناس ، وكان أول من بايعه طلحة بن عبد الله ، فنظر إليه رجل يعتاف يقال له حبيب بن ذؤيب فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! أول يد يبايعت يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر » . وسرعان ما نكث بها العهد ، ثم الزبير ، ثم بقية الناس من المهاجرين والأنصار .

(١) عرف الصبيغ : الشعر الكثير الذي يكون على عتق الصبيغ ، يضرب به المثل في الكثرة والازدحام .

(٢) شق عطفائي : المراد به خدش جانبيه من كثرة زحام الناس عليه من أجل البيعة .

(٣) ربيضة الغنم : الطائفة الرايضة من الغنم .

والرواة مختلفون في بيعة الإمام بعد قتل الخليفة ، فقوم يقولون إن علياً بويع إثر قتل عثمان مباشرة ، وقيل إن المدينة ظلت أياماً وليس للناس فيها خليفة ، وإنما يدبر أمورهم فيها العافق بن حرب ، أحد زعماء الثورة ، على أنه قد تمت البيعة للإمام في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام في رواية ، وبثمانية أيام في روايات أخرى .

وقد عمت المسرة جميع المسلمين ، وقد وصف الإمام مدى سرور الناس ببيعته بقوله : « وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتجج بها الصغير ، وهدج إليها الكبير . وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب » .

والخلاصة أن البيعة جاءت إلى أمير المؤمنين منقادة راعمة ، ولم يكن غيره يصلح لها . ولذلك كان كرم الله وجهه صادقاً كل الصدق حين قال : « إن العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » . ومن العجيب أن يتهم معاوية الإمام علياً بقتل عثمان رضي الله عنه وقد بذل كل جهد مستطاع في نصرته وحمايته ، حتى إنه عهد إلى ولديه الحسن والحسين أن يقفوا مدافعين عنه بسيفهما مع أنه كان يضمن بهما خشية أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض ، ولم يحرك معاوية ساكناً في نصرة عثمان عليه السلام ، وكان معاوية متمكناً في ولايته بالمال والرجال ، وكان حاضراً الاجتماع الذي عقده أمير المؤمنين عثمان من وزرائه ومستشاريه للتفكير في طلب الثوار .

بعد البيعة :

كانت البيعة يوم الجمعة ٢٥ من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة .

واتبع الإمام من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها ، ومنذ اللحظة الأولى أخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية التي لا قوة له غيرها ، فعزل الولاة : الذين استباحوا الغنائم المحظورة ، وتمرغوا بالدنيا وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتخرجين والحفاظ الغير على فضائل الدين ، ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوى الرحم فصرفتها عن وجوهها التي جعلت لها من إصلاح المرافق وإغاثة المفتقرين إليها على شرعة الإنصاف والمساواة ، ورجع إلى خطة أبي بكر وعمر في تجنب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنه الولايات مخافة عليهم من غوايتها وإبعاداً لهم من دسائس الشيع والعصبيات ، ولم يوسع الإمام للناس في العطاء ولم يمنحهم النوافل من المال ولم ييسر لهم أمورهم ، وإنما استأنف فيهم سيرة عمر من حيث انقطعت ، ومضى بهم في طريقه من حيث وقف ، وفرق الإمام عماله إلى البلدان . وكتب إلى معاوية يستقدمه ، وعند فراغه من الكتاب جاء المغيرة بن شعبة فقال : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : « كتاب كتبه إلى معاوية : وأريد أن أبعث

الرسول . فقال : « يا أمير المؤمنين عندي لك نصيحة فاقبلها مني » ، قال : « هات » ، قال : « إنه ليس أحد يتشعب عليك غير معاوية ، وفي يده بلاد الشام ، وهو ابن عم عثمان وعامله ، فابعث إليه بعهدته تلزمه طاعتك ، فإذا استقرت قدمك رأيت فيه رأيك » . فقال علي : لا والله لا يراني الله مستعيناً بمعاوية أبداً ، ولكن إلى ما نحن فيه ، فإن أجاب وإلا حاكمته إلى الله » ، ثم خرج المغيرة ، فلما كان الغد رجع ثانياً ، وقال يا أمير المؤمنين إني قد كنت جئتكم بالأمس وأشرت عليك بما أشرت وخالفتني ، ثم إني رأيت ليلتي هذه أن الرأي ما رأيت فأرسل إلى معاوية الكتاب الذي كتبت ، فإن قدم وإلا فاعزله ، فقال : أفعل إن شاء الله تعالى .

فخرج المغيرة بن شعبة وفرّ إلى مكة ، وكان يقول : نصحت علياً فلما لم يقبل غشسته .

ويقول ابن عباس : « أتيت علياً رضي الله عنه بعد مبايعة الناس له فوجدت المغيرة بن شعبة مستخلياً به ، فقلت له بعد أن خرج : ما كان يقول لك هذا ؟ فقال : قال لي مرة قبل مرته هذه ، إن النصيحة أن نقرّ معاوية على عهدته وابن عامر وعمال عثمان حتى تأتلك بيعتهم ويسكن الناس ، ثم اعزل من شئت منهم وأبق من شئت منهم ، فأبيت عليه ذلك ، ثم عاد إلى الآن ، فقال : إني الآن رأيت أن تصنع الذي رأيت أن تعزل من تختار وتقر من تثق به . قال ابن عباس : فقلت

لعلى : أما المرة الأولى فقد نصحك ، وأما المرة الثانية فقد غشك ، قال : وكيف نصحه لي ؟ قلت : لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فتي أثبتهم على عملهم سكنوا ، ومتى عزلتهم يقولون أخذ الأمر بغير حق ، وهو قتل صاحبنا عثمان ، مع أني لا آمن عليك من طلحة والزبير ، وكان طلحة والزبير قد طلبا من الإمام ولاية العراق واليمن فكان رد على عليهما : « بل تبقيان معي لأنس بكما » ، وكان ابن عباس قد أشار على الإمام بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة ، فكان رد الإمام على ابن عباس : « ويحك إن العراقيين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفية بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لا استعملت معاوية على الشام ، ولو لا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأى » .

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه ، فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة ، وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه ، وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير ، وكان أمير المؤمنين على بن أبي طالب يميل دائماً إلى مفاتحة الخارجين عليه بالمهادنة أو المصالحة ، ويفضل إقناع خصمه قبل قتاله ، فنادى

الزبير من بين الصفوف وقال له : أتذكر أنك يوماً صافحتني وعانقتني
 يحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لك : أتجبه ؟ فقلت : كيف
 لا أحبه وهو أخي وابن خالي ؟ فقال لك : « أما إنك ستقاتله وأنت
 ظالم له » . فقال الزبير : « لقد أذكرتني ما أنسانيه الدهر ، لو ذكرت
 ذلك ما خرجت ، والله لا أقاتلك أبداً » . وانسحب من المعركة ،
 فعيره ابنه عبد الله بن الزبير ، وقال له تعيرنا نساء قريش ، فقال
 يا بني لقد أذكرتني ما أنسانيه الدهر ، العار ولا النار ، ولما سألت أم المؤمنين
 السيدة عائشة رضی الله عنها عما جرى من حديث بينه وبين الإمام
 قال : « والله ما وقتت موقفاً ولا شهدت مشهداً في شرك ولا إسلام
 إلا ولى فيه بصيرة ، وأنا اليوم على شك من أمرى وما أكاد أبصر موضع
 قدمي » . وشق الصفوف وخرج من بينهم آخذاً طريق مكة ثم قال :

اخترت عاراً على نار مؤججة	ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى على بأمر لست أجهله	عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عدل أباحسن	فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني

وستكلم تفصيلاً في الأبواب القادمة عن حروب الإمام علي .

حروب الإمام عليّ

المائة الأولى

حرب الجمل :

جاء في شرح النهج أنه لما قتل سيدنا عثمان رضى الله عنه كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بمكة ، ووصلها خبر قتله وهي بسرف ، فلم تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر ، وقالت : « بعداً لعثمان وسحقاً ! إيه ذا الأصبع ! إيه أبا شبل ! إيه يا بن عم ! لكأنى أنظر إلى أصبعه وهو يبائع له ، حشوا الإبل ودعدعوها » .

وفي قول آخر أن السيدة أم المؤمنين لما بلغها قتل الخليفة وهي بسكة أقبلت مسرعة وهي تقول ! إيه ذا الأصبع ! لله أبوك ! أما لإنهم وجدوا طلحة لها كفتاً . فلما انتهت إلى سرف استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي ، فقالت له : ما عندك ؟ قال : قتل عثمان ، قالت : ثم ماذا ؟ قال : ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار ، بايعوا عليّاً . فقالت : لو ددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا ، ويحك ! انظر ماذا تقول ، قال : هو ما قلت لك يا أم المؤمنين ، قيل : فولوت . فقال لها : ما شأنك يا أم المؤمنين ، والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها منه ،

ولا أحتق ، ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته ، فلماذا تكرهين ولايته ؟
قال : فما ردت عليّ جواباً .

ويقول الطبري فيما رواه بسنده وذكره ابن الأثير أيضاً : « فلما
كانت أم المؤمنين بسرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث ، يقال له
عبيد بن أبي سلمة ، فسألته ، فقال : قتل عثمان وبقوا ثمانياً .
قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال أخذوا أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت
بهم الأمور إلى خير مجاز ، اجتمعوا على بيعة عليّ ، فقالت : ليت
هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . ردوني ردوني . فانصرفت
إلى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه .

فقال لها : ولم والله ؟ إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقوئين
اقتلوا نعثلاً فقد كفر ! قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ،
وقولي الأخير خير من قولي الأول . وقيل إن ابن أم كلاب قال :

فمنك البداء ومنك الغير	ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام	وقلت لنا إنه قد كفر
فهينا أطعناك في قتله	وقاتلة عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا	ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا نذر	يزيل الشبا ويقم الصعر
ويليس للحرب أثوابها	وما من وفي مثل من قد غدو

ودخلت مكة وقصدت الحجر فسرت فيه ، فاجتمع الناس حولها ،

فقالت :

«أيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة ، اجتمعوا على هذا الرجل المتقون ظلماً بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه ، وقد استعمله أمثالهم قبله . ومواضع من الحمى حماها لم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادوا باللعنوا فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لأصعب من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه ، إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء .»

فقال عبد الله بن عامر الحضرمي - وكان عامل عثمان على مكة - هأنذا أول طاب . فكان أول مجيب ، وتبعه بنو أمية على ذلك . وروى الطبري عن عبيد بن عمر القرشي قال : قدم عليها في مكة رجل يقال له أخضر ، فقالت : ما صنع الناس ؟ فقال : قتل عثمان المصريين ! قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ، والله لا نرضى بهذا .

وطلب طلحة والزبير من علي أن يوليهم المصريين البصرة والكوفة ، فقال : بل تقيان معي ، فإني لا أستغني عن رأيكما ، وقيل استشار ابن عباس فلم يشر به ، قال ابن أبي الحديد : فاستأذناه في العمرة ، فقال لهما : ما العمرة تريدان ، وإنما تريدان الغدرة ونكت البيعة ،

فحلقت بالله ما الخلاف عليه ولا نكث البيعة يريدان ، وما رأيهما غير العمرة ؛ قال : فأعيدا البيعة لى ثانية . فأعادها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق ، فأذن لهما ، فلما خرجا قال : والله لا ترونها إلا فى فتنة يقتلان فيها ! قالوا : يا أمير المؤمنين فبردهما عليك . قال : ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وقدم طلحة والزبير من المدينة ، فلقيا عائشة فقالت : ما وراءكما ؟ فقالا : إنا نحملنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ، ولا يمنعون أنفسهم ، فأمرتهم عائشة بالخروج إلى المدينة ، فقالوا : نأتى الشام ، فقال ابن عامر قد كفاكم الشام معاوية ، فأتوا البصرة ، فإن لى بها صائغ ولهم فى طلحة هوى .

وعن المفيد فى كتاب الاختصاص : « لما صممت عائشة على الخروج إلى البصرة أتت أم سلمة ، وكانت بمكة ، فقالت : يابنة أبى بكر ، كنت كبيرة أمهات المؤمنين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقماً فى بيتك ، وكان يقسم لنا فى بيتك ، وكان ينزل عليه الوحي فى بيتك... لقد زرتنى وما كنت زوارة... قالت : إن ابنى وابن أختى (عبد الله ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر) أخبرانى أن الرجل قتل مظلوماً ، وأن بالبصرة

مائة ألف سيف يطاوعون ، فهل لك أن أخرج أنا وأنت لعل الله يصلح بنا بين فئتين متناجرتين ، أو قالت متناحرتين ؟

فقالت أم سلمة : لو ذكرتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم خساً في علي لهشت بها نهش الرقشاء المطرقة ذات الخجب (الخبث) ، أفذكرين إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرع بين نسائه إذا أراد سناً ، فأقرع بينهن ، فخرج سهمي وسهمك ، فبينما نحن معه ، وهو هابط من قديد ومعه عليّ يحدثه ، فذهبت لتهمي عليه ، فقلت لك : رسول الله معه ابن عمه ، ولعل له إليه حاجة ، فعصيتني ، ورجعت باكية ، فسألتك ، فقالت : إنك هجمت عليهما ، فقلت له : يا علي إنما لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم من تسعة أيام ، وقد شغلته عني ، فأخبرتني أنه قال لك : أتبغضينه ؟ فما يبغضه أحد من أهلي ولا من أمي إلا خرج من الإيمان ! أتذكرين هذا يا عائشة ؟ قالت : نعم ، قالت : ويوم أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم سناً وأنا أحش له حشياً ، فقال « ليت شعري ! أيتكن صاحبة الحمل الأدب^(١) ، تنبجها كلاب الحوآب ؟ » ، فرفعت يدي من الحشيش ، وقلت : أعوذ بالله أن أكونها فقال : « والله لا بد لإحداكن أن تكونها اتقى الله يا حميراء أن تكونيها » . أتذكرين هذا يا عائشة ؟ !

(١) الأدب : الكثير وبر الوجه . وفك الإدغام لمناسبة الحوآب .

قالت نعم .

قالت : ويوم تبدلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلبست ثيابي ، ولبست ثيابك ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى جنبك ، فقال : « أتظنين يا حميراء أني لا أعرفك ؟ أما إن لأمتي منك يوماً مرّاً ، أو يوماً أحمر » . أتذكرين هذا يا عائشة ؟ قالت : نعم .

قالت : ويوم كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أبوك وصاحبه يستأذنان فدخلنا الخدر ، فقالا : « يا رسول الله ، إنا لا ندرى قدر مقامك فينا ، فلو جعلت لنا إنساناً تأتيه بعدك » .

قال : أما إني أعرف مكانه ، وأعلم موضعه ، ولو أخبرتكم به لتفرقتن عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن عيسى بن مريم .

فلما خرجا خرجت إليه أنا وأنت ، وكنت جريئة عليه ، فقلت : من كنت جاعلاً لهم ؟ فقال : يخاصف النعل . وكان علي بن أبي طالب يصلح نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تحرقت ، ويغسل ثوبه إذا اتسخ ؛ فقلت : ما أرى إلا علياً . فقال : هو ذاك أتذكرين هذا يا عائشة ؟ قالت نعم . ما أقبلني لوعظك ، وأسمعتني لقولك ! فإن أخرج فني غير حرج ، وإن أقعد فني غير بأس .

فخرج رسولها فنادى في الناس : من أراد أن يخرج فإن أم المؤمنين

غير خارجة . فدخل عليها عبد الله بن الزبير فنفض في أذنها ، وقلها في اللروة والغارب فخرج رسولها ينادى : من أراد أن يسير فليسر فإن أم المؤمنين خارجة ، فلما كان من ندمها أنشأت أم سلمة تقول^(١) :

لو كان معتصماً من زلة أحد كانت لعائشة الرتي على الناس
كم سنة لرسول الله ذاكرة وتلو آى من القرآن مدراس
قد ينزع الله من قوم عقولهم حتى يكون الذى يقضى على الناس
فيرحم الله أم المؤمنين لقد كادت تبذل إباحشاً بإيناس

فقال لها عائشة : « شمتنى يا أخت » .

فقال لها أم سلمة : « ولكن الفتنة إذا أقبلت غطت على البصيرة ، وإذا أدبرت أبصرها العاقل والجاهل »^(٢) .

وطلبوا من حفصة المسير معهم إلى البصرة فأجابتهم ، فمنعها أخوها عبد الله بن عمر ، وجهزهم يعلى بن أمية بستائة بعير وستائة ألف درهم كانت معه ، وجهزهم ابن عامر بمال كبير .

ويقول ابن الأثير :

وناد مناديا أن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فن

(١) روى الطبرى في الاحتجاج محادثة أم سلمة مع أم المؤمنين بطريق آخر ، كما أورد الصادق عليه السلام الأبيات بتفاوت .

(٢) أورد ابن أبي الحديد في شرح النهج هذه المحادثة .

أراد إعزاز الإسلام وقتال المحليين والطلب بثأر عثمان، وليس له مركب
 وجهاز فليات، فحملوا ستمائة على ستمائة بعير. وأعطى يعلى بن أمية
 عائشة جملاً اسمه عسكري اشتراه بثمانين ديناراً فركبته، وساروا في ستمائة،
 وقيل تسعمائة، وقيل ألف من أهل المدينة ومكة، ولحقهم الناس،
 فكانوا في ثلاثة آلاف رجل، ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان ومروان
 ابن الحكم وسائر بني أمية. ويقول الطبري:

وأمرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، فكان يصلي
 بهم في الطريق وبالبصرة حتى قتل. قال: فركت الطريق ليلة،
 ثم أتوا البصرة في عام خصيب وتمثلت:

دعى بلاد جموع الظلم إذ صلحت فيها المياه وسيرى سير مذعور
 تخيري النبت فارعى ثم ظاهرة وبتن واد من الضمّار مطور

وروى الطبري بسنده عن المغيرة بن الأحنس، قال: أتى سعيد
 ابن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق، فقال: أين
 تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل؟ قال ابن الأثير: يعني عائشة
 وطلحة والزبير. اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم، لا تقتلوا أنفسكم،
 قالوا: بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً. وإلى ذلك يشير مهيبار:
 ولقتيل يلزمون دمه وفيهم القاتل غير من قتل

فخلا سعيد بطلحة والزبير فقال: إن ظفرتما فلمن تجعلان الأمر؟

قالا: لأحدنا، أينما اختاره الناس، قال: بل اجعلوه لولد عثمان،

فإنكم خرجتم تطلبون بدمه ، قالوا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ، قال : فلا أراي أسعى لأخرجها من بني عبد مناف ، فرجع ورجع معه جماعة . يقول الطبرى : وتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات حرق ، فبكوا على الإسلام ، فلم ير يوم كان أكثر باكيةً وبأكية من ذلك اليوم ، فكان يسمى يوم النحيب .

وفى المفيد : أنه لما بلغ علياً عليه السلام نكث طلحة والزبير بيعته ، واجتماعهما مع عائشة على التآليب عليه ، خطب بالمدينة فقال : « أما بعد فإن الله بعث محمداً للناس كافة ، وجعله رحمة للعالمين ، فصدع بما أمر به ، وبلغ رسالات ربه ، فلم به الصدع ، ورتق به الفتق ، وآمن به السبل ، وحقق به الدماء ، وألف به بين ذوى الإحن والعداوة والوغر فى الصدور والضغائن الراسخة فى القلوب ، ثم قبضه الله إليه حميداً ، وكان من بعده ما كان من التنازع فى الإمرة ، فتولى أبو بكر ، وبعده عمر ، ثم تولى عثمان ، فلما كان من أمره ما عرفتموه أتيتموني فقلتم : بايعنا ، فقلت : لا أفعل ، فقلتم : بلى ، فقلت : لا ، وقبضت يدى قبضتموها ، ونازعتكم فجذبتموها حتى تداكمت على تداك الإبل الهيم على حياضها يوم وردها ، حتى ظننت أنكم قاتلى ، وأن بعضكم قاتل بعضاً ، فبسطت يدى فبايعتموني مختارين ، وبايعنى فى أولكم طلحة والزبير طائعين غير مكرهين ، ثم لم يلبثا أن استأذنانى فى العمرة ، والله يعلم أنهما أرادا الغدرة ، فجددت عليهما العهد فى

الطاعة وألا يبغيا الأمة الغوائل فعاهداني ، ثم لم يفيا لي ، ونكثا بيعتي ، ونقضوا عهدي ، فعجباً لهما من انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما لي ، ولست بدون أحد الرجلين ، ولو شئت أن أقول لقلت ، اللهم احكم عليهما بما صنعا في حقى وصغرا من أمرى .

وفى شرح النهج أن علياً خطب - لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البصرة - فقال : « أيها الناس إن عائشة سارت إلى البصرة ومعها طلحة والزبير ، وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبه ، أما طلحة فابن عمها ، وأما الزبير فختنها ، والله لو ظفروا بما أرادوا - ولن ينالوا ذلك أبداً - ليضربن أحدهما عتق صاحبه بعد تنازع فيهما شديد ، والله إن راجة الحمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحمل عقدة إلا في معصية الله وسخطه حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة ، إى والله ، ليقتلن ثلثهم ، وليهربن ثلثهم ، وليتوبن ثلثهم ، وإنها التى تنبجها كلاب الحوآب ، وإنهما ليعلمان أنهما مخططان ، ورب عالم قتله جهله ومعه علمه لا ينفعه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقد قامت الفتنة ، فيها الفئة الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالى ولقريش ! أما والله لقد قتلهم كافرين ، ولأقتلهم مفتونين ، وما لنا إلى عائشة من ذنب إلا أنا أدخلناها فى حيزنا ، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته ، فقل لقريش فلتضج ضجيجها . ثم نزل .

قال ابن الأثير : ولما بلغ علياً خروجهم إلى العراق وعاجوه أهل

المدينة فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم ، فتناقلوا ، فلما رأى زياد بن حنظلة تناقلهم قال له : من تناقل عنك فإننا نخف معك فنقاتل دونك .

وقالت أم سلمة : يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله ، وأنت لا تقبله مني ، لخرجت معك ، وهذا ابني عمرو ، وهو والله أعز علي من نفسي يخرج معك ، ويشهد مشاهدك ، فخرج معه ولم يزل معه ، واستعمله على البحرين . واستخلف علي^ع على المدينة تمام بن العباس ، وقيل سهل بن حنيف ، وعلى مكة قثم بن العباس ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخفين في سبعمائة رجل ، وهو يرجو أن يدركهم فيرددهم قبل وصولهم إلى البصرة ، أو يوقع بهم . وسار من المدينة إلى الربرة ، فأتاه الخبر بأنهم سبقوه .

وقال المفيد : لما نزل أمير المؤمنين عليه السلام « الربرة » قال : أما بعد فإن الله بعث محمداً وإيس في العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدعى نبوة ، فساق الناس إلى منجاتهم ، أما والله ما زلت في ساقها ما غيرت ولا بدلت ولا خنت . حتى تولت بحذافيرها . مالي ولقريش . أما والله لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلتهم مفتونين ، وإن مسيرى هذا عن عهد إلى فيه ، أما والله لأبقرن الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته ! ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم ، فأدخلناهم في حيزنا .

وأرسل على عليه السلام إلى المدينة فأتاه ما يريد من دابة وسلاح :
 وأتاه وهو بالربذة جماعة من طي . فقيل له : هذه جماعة قد أتتك ،
 منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد التسليم عليك . قال :
 جزى الله كليهما خيراً ، وفضل الله المجاهدين على القاعدتين أجراً
 عظيماً . ثم سار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح ،
 والراية مع محمد بن الحنفية ، وعلى الميمنة عبد الله بن العباس ، وعلى
 المسيرة عمر بن أبي سلمة ، وعلى على ناقه حمراء يقود فرساً كيتاً حتى
 نزل بفيد ، فأتته أسد وطي ، فعرضوا عليه أنفسهم فقال : الزموا
 قراركم ، في المهاجرين كفاية .

أول شهادة زور في الإسلام

وسارت أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها ومن معها حتى مروا بماء
 يدعى الحوآب ، فنجسهم كلابه ، فقالوا : أى ماء هذا ؟ قيل : هذا
 ماء الحوآب ، فصرخت عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بغيرها
 فأناخته . ثم قالت : « أنا والله صاحبة كلاب الحوآب » . وقالت :
 ردوني . وأناخت وأفاخروا حولها يوماً وليلة ، فقال لها عبد الله بن الزبير :
 إنه كذب . وجاءوا لها بأربعين رجلاً ، وقيل بنحسين من الأعراب
 رشوم ، فشهدوا أن هذا ليس بماء الحوآب ، وكانت أول شهادة زور
 أقيمت في الإسلام . وسارت أم المؤمنين في طريقها .

روى الحكم في المستدرک عن أم سلمة قالت : ذکر النبي صلى الله عليه وسلم خروج بعض أمهات المؤمنين ، فضحكت السيدة عائشة ، فقال انظري يا حميراء ألا تكوني أنت .

وعن قيس بن أبي حازم : لما بلغت أم المؤمنين بعض ديار بني عامر نبحت عليها الكلاب . فقالت : أى ماء هذا ؟ قالوا : الحوآب .

قالت : ما أظنني إلا راجعة .

فقال الزبير : لا تقدمي ويرارك الناس ويصلح الله ذات بينهم .

قالت : ما أظنني إلا راجعة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كيف بإحدائكن إذا نبحتها كلاب الحوآب !

ويقول الطبرى : ولم يزل بها عبد الله بن الزبير وهي تمتنع ، فقال لها : النجاء النجاء! قد أدرككم على بن أبي طالب . فارتحلوا نحو البصرة ، فلما كانوا قريباً منها أرسلت عبد الله بن عامر بن كرزب إلى البصرة وأقامت بالحفير ، ولما بلغ ذلك عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل الإمام أرسل إليها عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلى ، فأنهيا إليها بالحفير ، فأذنت لهما فدخلتا وسلما ، وسألاها عن مسيرها ، فقالت : ما مثلى يغطى لبنيه الخبر ، إن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه ، وأووا المحدثين فاستوجبوا

لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا عذر ،
فسفكوا الدم الحرام ، وأنهبوا المال الحرام ، وأحلوا الهلذ الحرام والشهر
الحرام ، فخرجت في المسلمين أعلمهم بما أتى هؤلاء وما الناس فيه وراعفاء
وما ينبغي لهم من إصلاح هذه القصة . وقرأت :

« لا خير في كثير من نجواهم . . . » ، فهذا شأننا إلى معروف
نأمركم به ومنكر نهاكم عنه ، فخرجنا من عندها وأتيا طلحة فقالا :
ما أقدمكم ؟

قال : الطلب بدم عثمان .

قالا : ألم تبايع علياً ؟

قال : بلى ، والسيف على عنق .

وأتيا الزبير ، فقالا له مثل ذلك فأجابهما بمثل قول طلحة .

ورجعا إلى عثمان ، ونادى مناديهما بالرحيل ، فدخلوا على عثمان

فقال أبو الأسود :

يابن حنيف قد أتيت فأنصر وطاعن القوم وجالد واصبر

وابرز لهم مستلثماً وشمر

ويقول أبو مخنف : لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حفر

أبي موسى قريباً من البصرة أرسل عثمان بن حنيف عامل عليّ على البصرة

إلى القوم أبا الأسود الدؤلي يعلم له علمهم ، فجاء حتى دخل على أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها - ودارت بينهما المحاوراة الآتية ، فسألها عن سيرها .

السيدة عائشة : أطلب بدم عثمان .

أبو الأسود : إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد .

السيدة عائشة : صدقت ، ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة ، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله ، أنغضب لكم من سوط عثمان ، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ؟

أبو الأسود : ما أنت من السوط والسيف ، إنما أنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرك أن تقرتي في بيتك ، وتلي كتاب ربك ، وأيسر على النساء قتال ، ولا هن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك ، وأمس رحماً ، فإنهما ابنا عبد مناف .

السيدة عائشة : لست منصرفة حتى أمضي لما قدمت له ، أفنظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي ؟

أبو الأسود : أما والله لقتالن قتالا أهونه الشدائد .

ودارت محاوراة أخرى بين أبي الأسود والزبير وطلحة ، وتكلمت أم المؤمنين فحمدت الله وقالت : كان الناس يتجنون على عثمان ويزرون

على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستثيروننا فيما يخبروننا عنهم ، فننظر في ذلك فنجده برأ تقياً وفيماً ، ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، فلما قووا كائروه واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام بلا عذر إلا أن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره : أخذ قتل عثمان وإقامة كتاب الله . وقرأت : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . .) الآية . . . فافترق أصحاب ابن حنيفة فرقتين : فرقة قالت : صدقت وبرت ، وقال آخرون : كذبتم ، والله ما نعرف ما جئتم به . فتحاثوا وتحاصبوا ، فلما رأت عائشة ذلك انحدرت ومال بعض أصحاب ابن حنيفة إلى عائشة وبقى بعضهم معه .

قال الطبري وابن الأثير : وأقبل جارية بن قدامة السعدي فقال : يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، إنه قد كان لك من الله سر وحرمة ، فهتكت سرك ، وأبجت حرمتك ، إنه من رأى قتالك يرى قتلك ، إن كنت أيتنا طائعة فارجمي إلى منزلك ، وإن كنت أيتنا مكرهة فاستعيني بالناس .

ويقول الطبري : كتبت أم المؤمنين لما قدمت البصرة إلى زيد ابن صرحان بالكوفة : « من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صرحان ، أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذل الناس الإمام على

عن عليّ . فكتب زيد بن صوحان إلى عائشة : « أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك ، وإلا فأنا أول من يناديك » . قال زيد بن صوحان : رحم الله أم المؤمنين ! أمرت أن تلزم بيتها ، وأمرنا أن نقاتل ، ففركت ما أمرت به وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ، ونهتنا عنه .

ويقول الطبري أيضاً : إنه لما قدمت عائشة ومن معها البصرة قال لهم عثمان بن حنيف : ما تقمتم على صاحبكم ؟ فقالوا : لم نره أولى بها منا ، وقد صنع ما صنع ، قال : فإن الرجل أمرني ، فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له على أن أصلى أنا بالناس حتى يأتينا كتابه ، فوقفوا عنه . فكتب فلم يلبث إلا يومين أو ثلاثة حتى وثبوا على عثمان عند مدينة الرزق فظفروا به ، وأرادوا قتله ، ثم خشوا غضب الأنصار فتنفخوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه وضربوه وجبوه ، وأصبح طلحة والزبير بعد أخذ ابن حنيف وبيت المال والحرس في أيديهما ، فجعلوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقام طلحة والزبير خطيبين فقالا : يا أهل البصرة توبة لحوبة ، إنما أردنا أن نستعبت أمير المؤمنين عثمان فغلب السفهاء الحلماء فقتلوه ، فقال الناس لطلحة : يا أبا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ، فقال الزبير هل جاءكم مني كتاب في شأنه ، ثم ذكر قتل عثمان وأظهر عيب علي ، فقام إليه رجل من القيس فقال : يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلا منكم ، فرضينا وسلمنا ولم تستأمرونا في شيء ، ثم مات ، واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا ، فرضينا وسلمنا ، فلما توفى جعل أمركم إلى ستة فاخترتم عثمان عن غير مشورتنا . ثم أنكرتم منه شيئا فقتلتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً عن مشورة منا ، فما الذي نقمتم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بنىء ، أو عمل بغير الحق ، أو أتى شيئا تنكرونيه ، فنكون معكم عليه ؟ فهموا بقتل الرجل فنعتته عشيرته ؛ فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه وقتلوا منهم سبعين ، وبلغ حكيم ابن جبلة ما صنع بعثمان بن حنيف فقال : أخاف الله إن لم أنصره ، فجاء في جماعة من عبد القيس وبكر بن وائل ، وطلب حكيم من عبد الله بن الزبير الإفراج عن عثمان بن حنيف - فرفض ابن الزبير قائلاً : « لا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى نخلع علياً » - فقال حكيم اللهم إنك حكم عدل فاشهد ، وقال لأصحابه إني لست في شك من قتال هؤلاء ، ونادى أصحاب عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا ، فإننا لا نريد إلا قتلة عثمان . فأنشب حكيم القتال ولم يرع للمنادى ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، ومع حكيم ثلاثة قواد ، فكان حكيم بجيالم طلحة ، وذريح بجيالم الزبير ، وابن المحرش بجيالم عبد الرحمن بن عتاب ، وحرقوق بن زهير بجيالم عبد الرحمن

الحارث بن هشام ، فزحف طلحة لحكيم وهو في ثلثمائة رجل ، وجعل
حكيم يضرب بالسيف ويقول :

أضربهم باليابس ضرب غلام عابس
من الحياة آيس في الغرفات نافس

فضرب رجل ساق حكيم فقطعها ، فأخذ حكيم ساقه فرماه بها
فأصاب عنقه فصرعه ووقده ، ثم جبا إليه فقتله ، واتكأ عليه وقال :
يا فخذ لن تراعى إن معي ذراعى أحمى بها كراعى
وقال :

أقول لما جد بي زماعى للرجل يا رجلى لن تراعى
إن معي من نجلدة ذراعى

وقال :

ليس على أن أموت عار والعار في النامس هو الفرار
والمجد لا يفضحه الدمار

وقتل حكيم ، وقتل معه ابنا الأشرف وأبو الرعل بن جبلة . وقيل
إن الذي قتل حكيماً يزيد بن الأسحم الحداني ، لأن حكيماً وجد
قتيلاً بين يزيد بن الأسحم وأخيه كعب بن الأسحم ، وهما مقتولان .
وكتبت أم المؤمنين عائشة إلى أهل الكوفة تطلب منهم أن يشبطوا

الناس عن علي ، وتحثمهم على طلب قتلة عثمان ، وما ذكرته في كتابها : « أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه ، قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله فأجابنا الصالحون ، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح ، وعزم عليهم عثمان بن حنيف والزبير إلى أهل الشام يخبرونهم بذلك ويحثونهم على النهوض ، فكان أن قاتلوني حتى منغى الله عز وجل بالصالحين ، واحتجوا بأشياء فاصطلحنا عليها ، فخافوا وغدروا رخانوا وحشروا . وكتبت إلى رجال بأسمائهم « أن ثبطوا الناس عن هؤلاء القوم ونصرتهم ، واجلسوا في بيوتكم ، فإن هؤلاء لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان ، وفرقوا بين جماعة الأمة » رخانوا الكتاب والسنة ، حتى شهدوا علينا بالكفر ، فأنكر ذلك الصالحون وقالوا : ما رضيتم أن قتلتم الإمام حتى نخرجتم على زوجة نبيكم أن أمرتكم بالحق لتقتلوا وأصحاب رسول الله وأئمة المسلمين ، فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوماً ندعوهم إلى الحق ، فغدروا وخنأوا ، فغادروني في الغاس ليقتلوني ، والذي يحاربهم غيري ، فلم يبرحوا حتى بلغوا سدة بيتي ، فوجدوا نفراً على الباب فدارت عليهم الرحى » .

وكتبت إلى أهل اليمامة وأهل المدينة ، وكانت هذه الواقعة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ، وبابع أهل البصرة طلحة والزبير ، فقال الزبير : ألا ألفت فارس أسير بهم إلى علي أقتله بيانا أو صباحاً قبل أن يصل إلينا ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : إن هذه للفتنة

التي كنا نحدث عنها . فقال له مولاة : أتمسبها فتنه وتقاتل فيها ؟

وكان الإمام على رضى الله عنه أرسل وهو بالربذة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة وكتب إليهم : إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً وانهضوا إلينا ، فالإصلاح نريد ، لتعود هذه الأمة إخواناً . فقدمنا الكوفة ، وأتيا أبا موسى بكتاب على ، وقاما في الناس بأمره ، فلم يجابا إلى شيء ، واستشار ناس من أهل الحجا أبا موسى : فقال القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فغضب محمد بن أبي بكر ومحمد ابن جعفر ، وأغلظا لأبي موسى فلم ينجع فيه ، فانطلقا إلى علي فأخبراه الخبر وهو بنى قار . ولما نزل الإمام عليه السلام الثعلبية أتاه خير عثمان بن حنيف فأخبر أصحابه ، وقال : « اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير من قتل المسلمين » .

ولما نزل بنى قار أتاه فيها عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعرة

فقال : « يا أمير المؤمنين بعثني ذا لحية وقد جئتك أمرد » .

فقال : « أصبت أجراً وخيراً » .

وقال المفيد : لما نزل بنى قار أخذ البيعة على من حضره ، وتكلم

فأكثر من الحمد لله والشناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه

وسلم .

ثم قال : قد جرت أمور صبرنا عليها - وفي أعيننا القذى - تسليماً
 لأمر الله تعالى فيما امتحنتنا به ، ورجاء الثواب على ذلك ، وكان الصبر
 عليها أمثل من أن يتفرق المسلمون وتسفك دماؤهم . نحن أهل بيت
 النبوة ، وعرة الرسول ، وأحق الخلق بسطان الرسالة ومعدن الكرامة
 التي ابتدأ الله بها هذه الأمة ، وهذا طلحة والزبير ، وليس من أهل
 النبوة ولا من ذرية الرسول ، حين رأيا أن الله قد رد علينا حقنا بعد
 أعصر ، لم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتى وثبا على دأب الماضين
 قبلهما ، ليذهبا بجحى ويفرقا جماعة المسلمين عنى . ثم دعا عليهما .
 وأقام بذي قار ينتظر محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فأثاه
 الخبر بما لقيت ربيعة وخروج عبد القيس ونزولهم بالطريق فقال :
 عبد القيس خير ربيعة وفي كل ربيعة خير . وقال :

يا لهف ما نغسى على ربيعه ربيعة السامعة المطيعة
 قد سبقتني فيهم الوقيعه دعا على دعوة مميعة
 حلوا بها المنزلة الرفيعه

وسار على عليه السلام من ذى قار ومعه الناس حتى نزل على
 عبد القيس فانضموا إليه ، وسار من هناك فنزل الزاوية ، وسار من
 الزاوية يريد البصرة ، وسار طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة فالتقوا
 عند موضع قصر عبيد الله بن زياد ، فلما نزل التامن أرسل شقيق
 ابن ثور إلى عمرو بن مرجوم العبدى أن اخرج ، فإذا خرجت فقل

بنا إلى عسكر على ، فخرجوا في عبد القيس وبكر بن وائل ، فعدلوا إلى عسكر على ، وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال ، فكان يرسل على إليهم يكلمهم ويدعوهم ، وكان نزولهم في النصف من جمادى الآخرة سنة ٣٦ (١) .

وفي مروج الذهب : كان سير الإمام إلى البصرة سنة ٣٦ ، وفيها كانت وقعة الجمل ، وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها . ويؤيد ذلك الطبرى وابن الأثير وإن كان المسعودى يقول إن الوقعة كانت قبل ذلك التاريخ بخمسة أيام .

وكان جنود عائشة رضى الله عنها ثلاثين ألفاً وعسكر الإمام عشرين ألفاً ، وافترق أهل البصرة ثلاث فرق ، فرقة مع الإمام وفرقة مع أم المؤمنين وفرقة اعتزلوا .

وفي المفيد أن الإمام علياً رضى الله عنه قال لأصحابه يحرضهم على القتال : « عباد الله ، انهضوا إلى هؤلاء القوم منشرحة صدوركم بقناهم ، فإنهم نكثوا بيعتى ، وأخرجوا ابن حنيف عاملى بعد الضرب المبرح والعقوبة الشديدة ، وقتلوا السبايعة ، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدى ، وقتلوا رجالاً صالحين ، ثم تسبوا منهم من يحببى ، يأخذونهم في كل حائط وتحت كل رابية ، ثم يأثون بهم فيضربون رقابهم ، قاتلهم الله

(١) الطبرى وابن الأثير .

أنى يؤفكون ، انهضوا إليهم وكونوا أشداء عليهم والقوم صابرين محتسبين تعلمون أنكم منازلهم ومقاتلوهم ، وقد وطنتم أنفسكم على الطعن والضرب ومبارزة الأقران ، وأى امرئ منكم أحسن من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ، ورأى من أحد من إخوانه فشلا فليذب عن أخيه الذى فضل عليه كما يذب عن نفسه ، فلو شاء الله لجعله مثله .

وخطب الإمام عليه السلام لما توقف الجمعان فقال : « لا تقاتلوا القوم حتى ييدهوكم فإنكم بحمد الله على حجة ، وكفوا عنهم حتى ييدهوكم حجة أخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزتموهم فلا تتبعوا مدبراً . ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلت إلى رجال القوم فلا تهتكوا سراً ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القول والأنفس والعقول ، لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعير بها وعقبه من بعده » .

وروى الحاكم فى المستدرک بسنده عن أبى بكر ، قال : عصمى الله بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما هلك كسرى قال : من استخلفوا ؟ قالوا ابنته ، فقال : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . فلما قدمت عائشة ذكرت قوله صلى الله عليه وسلم فعصمى الله به .

وروى أيضاً أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت خطيبة

القوم وهم لها تبع ، فلما تراءى ابجمعان خرج الزبير على فرس عليه السلاح فقيل لعلى هذا الزبير . فقال : أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر .

ونخرج طلحة فخرج إليهما على^١ فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم .

قال على : لعمرى لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالا ، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه ولا تكونا كالتى نقضت غرظها من بعد قوة أنكائاً ، ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرمان دى وأحرم دماءكما ؟ ! فهل من حدث أحل لكما دى ؟ !

قال طلحة : ألبت الناس على عثمان .

قال على : (يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) . يا طلحة تطلب بدم عثمان ، فلعن الله قتلة عثمان ، يا طلحة جئت بعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك ، أما بايعتنى ؟ !

قال : بايعتك والسيف على عنق .

قال الطبرى :

وقال على للزبير : أنتطلب منى دم عثمان وأنت قتلته ؟ ! سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره ، يا زبير أتذكر يوم مررت مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر إلى فضحكك وضحكك
 إليه ، فقلت : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ! فقال لك : صه ،
 إنه ليس به زهو ، ولتقاتلكه وأنت له ظالم .

فقال : اللهم نعم ! ولو ذكرت ما سرت مسيرى هذا ، والله لا
 أقاتلك أبداً ورجع الزبير إلى أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها فقال
 لها : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى
 هذا ، قالت فما تريد أن تصنع ؟ قال أريد أن أدعهم وأذهب ،
 فقال له ابنه عبد الله : جمعت بين هذين العسكرين حتى إذا حدد
 بعضهم لبعض أردت أن تركهم وتذهب لكأنك خشيت رايات ابن
 أبي طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ، وأن تحبها الموت الأحمر
 فجيت . فأحفظه دمك وقال : إني حلفت ألا أقاتله ، قال : كفر
 عن يمينك وقاتله ، فأعتق غلامه مكحولاً . فقال عبد الرحمن بن سليمان
 التميمي :

لم أركاليوم أنا إخوان أعجب من مكفر الأيمان

بالعنق في معصية الرحمن

ترك الزبير الحرب ولم يحارب مع علي وتوجه إلى وادي السباع
 قاصداً المدينة ، وقتله ابن جرموز وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه .

ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج : قيل إن ابن جرموز دخل

على الإمام وأخبره بقتل الزبير ، فدعا بالسيف فهزه فقال : سيف طالما كشف الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وفي رواية أخرى - أنه قال له : أنت قتلته ؟ ! قال نعم ، قال والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لثيماً . وقال ابن جرmoz : الجائزة يا أمير المؤمنين . فقال : أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار .

وروى أبو مخنف : أنه لما تراحم الناس يوم الجمل قال الإمام على عليه السلام لأصحابه : « لا يرمين رجل منكم بسهم ، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح حتى يبدعوكم بالقتال وبالقتل » .

فرى أصحاب الجمل عسكر الإمام بالنبل رمية شديداً متتابعاً ، فضج إليه أصحابه وقالوا : عقرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين ، رجيء إليه برجل فقيل له : هذا فلان قد قتل . فقال : اللهم اشهد ، ثم قال : اعذروا إلى القوم ، فأتى برجل آخر فقيل : وهذا قد قتل ، فقال : اللهم اشهد ، اعذروا إلى القوم . ثم أقبل عبد الله بن ورقاء الخزاعي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل أخاه عبد الرحمن قد أصابه سهم فقتله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا أخي قد قتل ، فاسترجع على عليه السلام ، ودعا بدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات الفضول فلبسها ، فتدلت على بطنه ، فرفعها بيده ، وقال لبعض أهله فحزم وسطه بعمامة ، وتقلد ذا الفقار ، ودفع

إلى ابنه محمد راية رسول الله السوداء وتعرف بالعقاب ، قال للحسن والحسين عليهما السلام : « إنما دفعت الراية إلى أخيكما وتركتكما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ثم طاف الإمام على أصحابه وهو يقرأ :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) . ثم قال أفرغ الله علينا وعليكم الصبر ، وأعز لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم ظهيراً في كل أمر . ثم رفع مصحفاً بيده فقال : « من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إلى ما فيه وله الجنة » . فقام غلام شاب اسمه مسلم عليه قباء أبيض ، فقال : أنا آخذه ، فنظر إليه الإمام وقال : « يا فتى إن أخذته فإن يدك اليمنى تقطع ، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع ، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل » . وبعد محاوره بين الإمام والغلام نادى الغلام : هذا كتاب الله بيننا وبينكم . فضربه رجل فقطع يده اليمنى ، فتناوله باليسرى ، فضربه أخرى فقطع يده اليسرى ، فاحتضنه ، وضربوه بأسياقهم حتى قتل . فقالت أم ذريح العبدية في ذلك :

يا رب إن مسلماً أتاهم بمصحف أرسله مولاهم
للعدل والإيمان قد دعاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم

فخضبوا من دمه ظباهم وأمهم واقفة تراهم
تأمرهم بالغي لا تنهائم

ويروى الطبرى هذه القصة فيقول : « أخذ على مصحفاً يوم
الجمل ، فطاف به في أصحابه وقال : من يأخذ هذا المصحف يدعوه
إلى ما فيه وهو مقتول ، فقام إليه فتى من أهل الكوفة عليه قباء أبيض
اسمه مسلم بن عبد الله ، فقال : أنا ، فأعرض عنه ، ثم أعاده ثانياً
فقال الفتى : أنا ، فأعرض عنه ثم أعاده الثالثة فقال : أنا ، فدفعه
إليه ، فدعاهم فقطعوا يده اليمنى ، فأخذه بيده اليسرى فدعاهم ،
فقطعوا يده اليسرى ، فأخذه بصدرة وبأسنانه والدماء تسيل منه فقتل ،
فكان أول قتيل بين يدي أمير المؤمنين وأم المؤمنين ، فقال على : الآن
حل قتاهم ، وقالت أم الفتى تربيته :

لا همَّ إن مسلماً دعاهمُ يتلو كتاب الله لا يخشاهم
وأهمم قائمة تراهم يأترون الغنى لا تنهائم
قد خضبت من علقٍ لحاهم

واقْتل الناس ، وركبت عائشة الجمل^(١) المسمى عسكرياً ،
وكان الجمل لواء أهل البصرة ، وقالت أم المؤمنين : « أما بعد ، فإننا
كنا فقمنا على عثمان ضرب السوط ، وإمرة الفتيان ، وموقع السحابة

(١) اشترى هذا الجمل يعل بن أمية في مكة بمائتي دينار.

المحمية ، ألا وإنكم استعبتموه ، فلما مصصتموه كما يخاص الثوب
الرخيص عدوتم عليه فارتكبتم منه دماً حراماً ، وإيم الله إن كان لأحسنكم
فرجاً وأتقاكم لله . .

وأخذ قاضي البصرة « كعب بن سور » بخطام الحمل ، وأخذ
يقول :

يا أمنا عائش لا تراعي كل بنيك بطل المصاع

ينعى ابن عفان إليك ناعى كعب بن سور كاشف القناع

فارضى نبصر السيد المطاع والأرد فيهم كرم الطباع

وقتل كعب وكان أول قتيل بين يدي أم المؤمنين من أهل البصرة
والكوفة ، واقتتلوا إلى آخر النهار وانهزم عسكر عائشة .

ويقول الطبرى : ضرب محمد بن الحنفية يد رجل من الأرد فقطعها
فنادى يا معشر الأزد فروا ، واستحر القتل في الأرد فنادوا : نحن
على دين على بن أبي طالب ، وأقبل المهزومون يريدون البصرة ، فلما
رأوا الخليل أحافت بالحمل عادوا إلى الحرب .

أما طلحة فيقول ابن الأثير إن مروان ابن الحكم هو الذى رماه
بسهم ومات طلحة في دار خربة في البصرة .

وحرضت أم المؤمنين الناس ، وكانت راية على عليه السلام يوم
الحمل مع ولده محمد بن الحنفية ، ويقول ابن أبي الحديد إن الإمام

دفع إلى محمد الراية يوم الحمل وقد استوت الصفوف . وقال له :
احمل ، فتوقف قليلا ، فقال له : احمل . فقال : يا أمير المؤمنين ،
أما ترى السهام كأنها شأبيب المطر ؟ فدفع في صدره وقال : أدركك
عرق من أمك . ثم أخذ الراية فهزها ثم قال :

اطعن بها طعن أبليك محمد لاخير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرفى والقنا المسدد

ثم حمل وحمل الناس خلفه فطحن عسكر البصرة .

وقيل لمحمد لم يغرر بك أبوك في الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين ؟
فقال : « لئنهما عيناه وأنا يمينه فهو يدفع عن عينيه بيمينه » .
وتسلم محمد الراية ومعه خزيمه بن ثابت ذو الشهادتين وكثير من
أهل بدر ، فحمل حملات كثيرة أزل بها القوم عن مواقعهم وأبلى
بلاء حسناً .

ويقول خزيمه بن ثابت في ذلك :

ولا كنت في الحرب الضروس معددا	محمد ما في عودك اليوم وصمة
على وسماك النبي محمدا	أبوك الذى لم يركب الخيل مثله
لكنك ولكن ذاك ما لا يرى أبدا	فلو كان حقاً من أبليك خليفة
لساناً وأنداها بما ملكت يدا	وأنت بجمد الله أطول غالب
قريش وأوفاها بما قال موعدا	وأقربها من كل خير تريده

وأطعنهم صدر الكمي برمح
سوى أخويك السيدين كلاهما
أبي الله أن يعطي عدوك مقعداً
وأكساهم للهام عضباً مهندا
إمام الوري والداعيان إلى الهدى
من الأرض أوفى اللوح مرقى ومصعدا

نهاية معركة الجمل :

اختلف المؤرخون في المدة الفاصلة التي انتهت فيها المعركة ، فقد ذكر الطبري أن الوقعة كانت يوم الخميس ، والمسعودي يقول إن وقعة الجمل كانت وقعة واحدة في يوم واحد . وبعض المؤرخين يقول إن الوقعة استمرت ثلاثة أيام . على أنه يمكن الجمع بأن الوقعة العظمية الفاصلة كانت في يوم واحد وغيرها كان مناوشات .

ويهمنا أن نذكر أنه في اليوم الثالث برز عبد الله بن الزبير ودعا إلى المبارزة فبرز إليه الأشتر ، فقالت أم المؤمنين : من برز لي عبد الله ؟ قيل : الأشتر ، فقالت : واثكل أسماء ! وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام ، وكانت هذه عادته في الحرب ، فضرب الأشتر عبد الله على رأسه ، فجرحه جرحاً شديداً ، وضربه عبد الله ضربة خفيفة واعتنق كل واحد منهما صاحبه ، وسقطا إلى الأرض يعتركان : فقال ابن الزبير

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

فلو يعلمون من مالك لقتلوه . وإنما كان يعرف بالأشتر ، فحمل أصحاب علي وعائشة فخلصوهما . ودخل الأشتر على أم المؤمنين بعد

حرب الجمل ، فقالت : أنت الذى صنعت بابن أختى ما صنعت ؟ قال : نعم ، ولولا أنى كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحت أمة محمد منه ! قالت : أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجل دم مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق » . فقال على بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أم المؤمنين ، والله خاننى سبى قبلها وقد أقسمت ألا يصحبني بعدها . وفى ذلك يقول :

أعائش لولا أننى كنت طاوياً	ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا
غداة ينادى والرماح تنوشه	كوقع الصياصي اقتلونى ومالكا
فلم يعرفوه إذ دعاهم وعمه	خذب عليه فى العجاجة باركا
فنجاه منى أكله وشبابه	وأنى شيخ لم أكن متماسكا
وقالت على أى الحصال صرته	بقتل أنى أم ردة لا أبالكا
أم المحصن الزانى الذى حل قتله	فقلت لها لا بد من بعض ذلكا

وفى الساعة المتأصلة من المعركة زحف الإمام نحو الجمل بنفسه فى كنيسته الخضراء من المهاجرين والأنصار ، وحوله بنوه الحسن والحسين ومحمد ، ودفع الراية إلى محمد وقال : « أقدم بها حتى تركزها فى عين الجمل ولا تقمض دونه » . فتمقدم محمد فرشقته السهام ، فقال لأصحابه : رويداً حتى تنمد سهامهم ، فلم يبق إلا رشقة أو رشقتان ، فأنفذ على إليه يحنه ويأمره بالمناجزة ، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه من خلفه فوضع

يده اليسرى على منكبه الأيمن وقال له : « أقدم لا أم لك ! » فكان محمد إذا ذكر ذلك يبكي ويقول لكأنى أجد ريح نفسه في قفاى . والله لا أنسى ذلك أبداً . ثم أدركت علياً رقة على ولده فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو القفار مشهور في اليمنى ، ثم حمل فغاص في عسكر الجمل ، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار : نحن نكفيك يا أمير المؤمنين فلم يجب أحداً منهم ، ولا رد إليهم بصره ، وظل يزأر زئير الأسد حتى فرق من حوله ، وإنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر من حوله ولا يرد حواراً ، ثم دفع الراية إلى محمد ، ثم حمل حملة ثائية وحده ، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قدماً قدماً ، والرجال تفر من بين يديه وتناحز عنه حتى خضب الأرض بدماء القتلى ، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، وناشده أصحابه الله في نفسه وفي الإسلام ، وقالوا إنك إن تصب يذهب الدين ، فأمسك ، ونحن نكفيك ، فقال : « والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة » .

ثم قال لمحمد : « هكذا تصنع يا ابن الحنفية » .

فقال الناس : من يستطيع ما تستطيع يا أمير المؤمنين ؟ !

وعن المدائني والواقدي : نادى الإمام عليه السلام : اعقروا الجمل ؛ فإنه إن عقر تفرقوا عنه . وفي رواية : حتى لقد صرخ على بأعلى صوته : ويلكم ! اعقروا الجمل فإنه شيطان ، ثم قال : اعقروه وإلا فنيت

العرب ، ولا يزال السيف قائماً حتى يهوى هذا البعير إلى الأرض .
 روى أبو مخنف قال : لما رأى الإمام أن الموت عند الحمل ، وأنه
 ما دام قائماً فالحرب لا تطفأ ، وضع سيفه على عاتقه وعطف نحره ،
 وأمر أصحابه بذلك ، وسقط الحمل ، فكانت الهزيمة ، وفرت الرجال
 عنه كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب .

وجاء محمد بن أبي بكر ومعه عمار بن ياسر فاحتملا الهروج
 ووضعاه ، وأدخل محمد يده فقالت أم المؤمنين : من هذا ؟

قال : أخوك محمد .

فقالت : مذمم .

قال : يا أخية هل أصابك شيء ؟

قالت : ما أنت من ذلك ؟

قال : فمن إذا ؟ الضلال ؟ !

قالت : بل الهداة .

وأمر الإمام نفرًا من أصحابه أن يحملوا الهروج من بين القتلى ،
 وإنه كالثقلد لما فيه من السهام ، وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن
 يضرب عليها قبة ، فلما كان الليل أدخلها البصرة فأنزلها في دار عبد الله
 ابن خلف الخزازي ، وكان الإمام يقول في ذلك اليوم بعد الفراغ من
 القتال .

إليك أشكو عجري ويجري ومعشراً غَشَوُوا عَلَيَّ بِصِري
 قتلت منهم مضراً بمضري شفيت نفسي وقتلت معشري

مع الإمام بعد المعركة :

عن ابن أبي الحديد أن الإمام ركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم التهباء ، وكانت باقية عنده ، وسار في القتلى يستعرضهم .

ويقول المفيد : ومن كلامه عند طوافه على القتلى : « هذه قريش ؛ جدعت أنفي ، وشفيت نفسي ، لقد تقدمت إليكم أحذركم عض السيف ولكنه الحين وسوء المصراع ، وأعوذ بالله من سوء المصراع .

ثم مر على معبد بن المقداد ، فقال : رحم الله أبا هذا لو كان حياً لكان رأيه أحسن من رأي هذا . ، فقال عمار بن ياسر : « الحمد لله الذي أوقعه وجعل خده الأسفل » .

ومر بمعبد الله بن ربيعة بن دراج ، فقال : هذا البائس ما كان أخرجه أدين أم نصر لعمان ؟ ! والله ما كان رأي عثمان فيه ولا في أبيه بحسن .

ثم مر بكعب بن سور ، فقال : هذا الذي خرج علينا في عنقه المصحف يزعم أنه ناصر أمه يدعو الناس إلى ما فيه ، ثم استفتح فخاب كل جبار عنيد ، أما إنه دعا الله أن يقتلني فقتله الله . أجلسوا كعب بن سور فأجلس ، فقال له أمير المؤمنين : « يا كعب لقد وجدت

ما وعدني ربى حقاً ، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً . ثم قال :
أضجعوه ، فأضجعوه .

ويقول المفيد : مر على طلحة فقال هذا الناكث بيعتى والمنشى
الفتنة فى الأمة ، والمجلب على ، والداعى إلى قتلى وقتل عترتى ،
أجلسو طلحة ، فأجلس فقال له : « يا طلحة قد وجدت ما وعدنى
ربى حقاً ، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً » ، أضجعوا طلحة ،
وسار ، فقال له بعض من كان معه : يا أمير المؤمنين أتكلم كعباً وطلحة
بعد قتلها ؟ ! فقال أما والله لقد سمعنا كلامى كما سمع أهل القلب
كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر .

قال ابن أبى الحديد : مر الإمام بعبد الرحمن بن عتاب ، فقال :
أجلسوه ، فأجلس ، فقال : هذا يعسوب قريش ، هذا لباب المحض
من عبد مناف ، ثم قال شفيت نفسى وقتلت معشرى إلى الله أشكو
عجرى ويجرى . قتلت الصناديد من بنى عبد مناف ، وأفلتني الأعيار
من بنى جمح ، فقال له قائل : لشد ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم
يا أمير المؤمنين .

وأقام الإمام عليه السلام بظاهر البصرة ثلاثاً ، وأذن للناس فى دفن
موتاهم ، فخرجوا إليهم فدفنوه .

وفى مروج الذهب : خرجت امرأة من عبد القيس تطوف بالقتلى

يوم الحمل ، فوجدت ابنين لها قد قتلا ، وقد كان قتل زوجها وأخوان
لها فيمن قتل قبل مجيء على البصرة فأنشأت تقول :

شهدت الحروب فشيئني فلم أريوما كيوم الحمل
أضر على مؤمن فتنة وأقتله لشجاع بطل
فليت الظعينة في بيتها ولينك عسكر لم ترنخل

عدد قتل المعركة

كانت القتلى خمسة عشر ألفاً ، قتل من أهل البصرة في المعركة
الأولى خمسة آلاف ، وفي المعركة الثانية مثلها ، وقتل من أهل الكوفة
خمسة آلاف . وقيل كان جميع القتلى عشرة آلاف ، نصفهم من
أصحاب علي ، ونصفهم من أصحاب عائشة . وقيل إنه قد قتل من
ضبة ألف رجل ، وقتل من بني عدى حول الحمل سبعون .

الإمام في مسجد البصرة

بعد الوقعة بثلاثة أيام دخل الإمام البصرة وترجه إلى المسجد فصلى .
ويقول المفيد : إن الإمام حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ،
فإن الله ذو رحمة واسعة ، ومغفرة دائمة ، ونفو جم ، وعقاب أليم ،
قضى أن رحمته ومغفرته وعفوه لأهل طاعته من خلقه ، وبرحمته اهتدى
المهتدون ، وقضى أن نقمته وسطوته وعقابه على أهل معصيته من خلقه ،

وبعد الهدى والبيّنات ما ضل الضالون ، فما ظنكم يا أهل البصرة وقد
نكثتم بيعتي وظاهرتم على عدوي .

فقام إليه رجل فقال : نظن خيراً . ونراك قد ظهرت وقدرت .
فإن عاقبت فقد اجترمنا ، وإن عفوت فالعفو أحب إلى الله تعالى .
فقال : قد عفوت عنكم ، وإياكم والفتنة ، فإنكم أول الرعية نكث البيعة
وشق عصا هذه الأمة .

ثم جلس للناس فبايعوه . ويقول الطبري إنه لما فرغ أمير المؤمنين
من بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة
فقسمها على من شهد معه فأصاب كل رجل منهم خمسمائة .

ويقول ابن أبي الحديد — عن أبي الأسود الدؤلي : قال لما ظهر
على عليه السلام يوم الجمل دخل بيت المال بالبصرة في أناس من
المهاجرين والأنصار وأنا معهم . فلما رأى كثرة ما فيه قال : « غرى
غبرى » مراراً . ثم نظر إلى المال وصعد فيه بصره وصوب . وقال :
اقسموه بين أصحابي خمسمائة خمسمائة . فقسم بينهم فلا والذي بعث
محمدًا بالحق ما نقص درهماً إلا زاد درهماً ، كأنه كان يعرف مبلغه
ومقداره . كان ستة آلاف ألف درهم . أى ستة ملايين . والناس
اثني عشر ألفاً .

ويقول ابن أبي الحديد : اتفقت الرواة كلها على أنه عليه السلام
قبض ما وجد في عسكر الجمل من سلاح ودابة ومملوك ومتاع وعروض

فقسمه بين أصحابه ، وأنهم قالوا له : أقسم بيننا أهل البصرة فاجعلهم رقيقاً ، فقال : لا . فقالوا : كيف تحمل لنا دماءهم وتحرم علينا سيبيهم ؟ فقال : كيف يحل لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام ، أما ما أوجب به القوم في معسكرهم عليكم فهو لكم مغنم ، وأما ما دارت عليه الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله .

قال المفيد : ثم كتب بالفتح إلى أهل الكوفة رسالة الإمام إلى أهل الكوفة : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله على بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، سلام عليكم ، فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله حكم عدل لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال . أخبركم عنا وعن سرنا إليه من جموع أهل البصرة ، ومن تأشب إليهم من قريش وغيرهم مع طاحنة والزبير ونكثهم صفقة إيمانهم ، فهضمت من المدينة حين انتهى إلى خبر من سار إليها وجماعتهم ، وما فعلوا بعاملي عثمان بن حنيف حتى قدمت ذا قار ، فبعثت الحسن ابن علي وعمار بن ياسر وقيس بن سعد ، فاستنفرتكم بحق الله وحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقى ، فأقبل إلى إخوانكم سراعاً حتى قدموا على ، فسرت بهم حتى نزلت ظهر البصرة ، فأعدت بالدعاء ، وقمت بالحجة ، وأقلت العثرة والزلة من أهل الردة من قريش وغيرهم ، واستبتهم من نكثهم بيعتى وعهد الله عليهم ، فأبوا إلا قتالى وقتال من

معى والتامدى فى النعى ، فزاهضتهم بالجهاد فقتل الله من قتل منهم
 ناكثاً ، وولى من ولى إلى مصرهم ، وقتل طلحة والزبير وحذلولوا وأدبروا ،
 وتقطعت بهم الأسباب ، فلما رأوا ما حل بهم سألوفى العفو عنهم فقبلت
 منهم ، ونعمدت السيف عنهم ، وأجريت الحق والسنة فيهم واستعملت
 عبد الله بن عباس على البصرة ، وأنا سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى ،
 وقد بعثت إليكم زحر بن قيس الجعفى لتسألوه فيخبركم عنا وعنهم ،
 وردهم الحق علينا ، ورد الله لهم ، وهم كارهون ، والسلام عليكم ورحمة
 الله وبركاته .

الإمام علي والسيدة عائشة

يقول الطبري : توجه الإمام علي إلى أم المؤمنين علي بغلته ، فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف وجد النساء يبكين على عبد الله وعمان ابني خلف ، وكان عبد الله قتل مع عائشة وعمان قتل مع علي ، وكانت صفية بنت الحارث تبكي ، فلما رآته قالت له : يا علي ، يا قاتل الأحبة يا مفرق الجمع ، أيم الله منك بنيك كما أيتمت ولد عبد الله منه . فلم يرد عليها شيئاً .

ودخل علي عائشة رضي الله عنها فسلم عليها وقعد عندها ، وفي رواية - أنه لم يسمع أحد من قول علي شيئاً إلا أن عائشة كانت امرأة عالية الصوت ، قالوا فسمعنا كهيئة لمعاذير إني لم أفعل ، ثم قال : جبهتنا صفية ، أما إني لم أرها منذ كانت جارية ، فلما خرج علي أعادت عليه القول فكف بغلته وقال : أما لحممت ، وأشار إلى الأبواب من الدار أن افتح هذا الباب واقتل من فيه ، وكان بعض الجرحى قد لجأوا إلى أم المؤمنين ومن بينهم مروان بن الحكم في حجرة ومعه جماعة ، وعبد الله بن الزبير في حجرة ومعه جماعة وآخرون في حجرة ، فأخبر علي بمكانهم عندها فتغافل عنهم ، فسكت ، فخرج علي ،

فقال رجل من الأزد : « والله لا تغلبنا هذه السيدة » . فغضب الإمام وقال : « صه لا تهتكن سترأ ولا تدخلن دارأ ولا تهيجن امرأة بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسفهن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات وإن الرجل ليكافئن المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده ، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس .

ويقول ابن أبي الحديد . في شرح النهج : بعث الإمام رضى الله عنه بعد وقعة الجمل عبد الله بن عباس إلى أم المؤمنين يرجوها بتعجيل الرحيل وقلة العرجة ، ويقول ابن عباس : فأتيها وهى فى قصر بنى خلف فى جانب البصرة ، فطلبت الإذن عليها ، فلم تأذن ، فدخلت من غير إذن ، فإذا بيت قفار لم يعد لى فيه مجلس ، فإذا هى من وراء ستر فضربت ببصرى فإذا فى جانب البيت رحل عليه طنفسة ، فددت الطنفسة فجلست عليها ، فقالت من وراء الستر : يا بن عباس أخطأت السنة . دخلت بغير إذن ، وجلست على وسادتنا بغير إذنا ، فقال لها ابن عباس : نحن أولى بالسنة منك ، ونحن علمنا السنة ، وإنما بيتك الذى خلقت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت منه ، فإذا رجعت إلى بيتك لم ندخله إلا بإذنك ، ولم نجاس على وسادتك إلا بأمرك ، إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب يطلب منك الرحيل إلى المدينة وفاة العرجة .

قالت : وأين أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب ؟ !

قال : وهذا على بن أبي طالب .

قالت : أبيت أبيت .

قال : أما والله إن كان إباؤك فيه إلا قصر المدة عظيم التبعة
ظاهر الشؤم بين النكد ، وما كان إباؤك فيه إلا حلب شاة حتى
صرت ما تأمرين ولا تنهين ولا ترفعين ولا تضعين ، وما كنت إلا كما
قال أخو بني أسد :

ما زال إهداء القصائد بيننا شتم الصديق وكثرة الألقاب
حتى تركت كأن صوتك بينهم في كل جمعة طنين ذباب

قالت : إني معجلة الرحيل إلى بلادى والله ما من بلد أبغض
إلى من بلد أنتم فيه .

قال : ولم ذاك وقد جعلناك للمؤمنين أمماً ؟

قالت : يا بن عباس تمنون على برسول الله .

ودار حوار بين ابن عباس والسيدة عائشة رضی الله عنها ، وتوجه
ابن عباس وذكر ما دار بينه وبين أم المؤمنين ، فقال له الإمام « ذرية
بعضها من بعض والله سميع عليم » .

عودة أم المؤمنين :

روى الطبري : أن عمار بن ياسر قال للسيدة عائشة رضي الله عنها ، حين فرغ القوم ، يا أم المؤمنين ، ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك ! وجهز الإمام عليّ أم المؤمنين بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع ، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وأرسل معها أخاها محمداً وكان ذلك في يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ .

ويقول المسعودي : إنه وكل بأم المؤمنين نساء مئلمات أركبهن الخيل . وعن هشام الكلبي أنه بعث معها أخاها عبد الرحمن في ثلاثين رجلا وعشرين امرأة ألبسهن العمام وقلدهن السيوف ، وقال : لا تَقْلُنْ إنا كن نسوة ، وتلثمن ، ولا يقرب منها رجل ، فلما وصلت إلى المدينة عرفها أمهن نسوة .

وفي كامل المبرد قال عمرو بن العاص لعائشة : « لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل » .

فقالت : ولم ؟ لا أبالك !

فقال : كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشيع على عليّ .

لماذا خرجت أم المؤمنين :

عندما تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، من جويرية ، بنى لها منزلاً إلى جانب منازل نسائه في جوار المسجد ، وأصبحت بذلك من أمهات المسلمين ، وبينما هو في شغله بها كان قوم قد بدعوا حديث الإفك المشهور ، ويقولون إن الرسول استشار علياً وأسامة بن زيد ، فأما أسامة فبنى كل ما نسب إلى أم المؤمنين على أنه الكذب والباطل ، وأما علي فقال : « يا رسول الله إن النساء كثير » وفي رواية أخرى : « يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء غيرها كثير » . ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلها تصدقه ، ودعت الجارية وقيل إن علياً ضربها ضرباً موجعاً وهو يقول : « أصدق رسول الله » ، والجارية تقول : « والله ما أعلم إلا خيراً » وتنفي عن عائشة قالة السوء ، ثم كان أن نزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم ونادى الرسول الكريم وقال : أبشرى يا عائشة قد أنزل الله براءتك — قالت عائشة : « الحمد لله » .

يقول الله سبحانه وتعالى : (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ . بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

هل كان رأى علي « إن النساء كثير » هو السبب ؟ وهل وصل أم المؤمنين هذا الرأى ؟ أغلب الظن أنها علمت بهذا الرأى كما سنرى بعد قليل .

والذى لا شك فيه أن أم المؤمنين كانت لا تميل إلى الإمام على ،
 فعندما قتل عثمان كانت السيدة عائشة في مكة ، رفى طريقها إلى المدينة
 عرفت بمقتل الخليفة . وقال لها فريق من الناس إن طلحة قد بويغ
 فأظهرت بذلك ابتهاجاً فقد كان طلحة مثلها تيميمياً ، واكبتها لقيت في
 طريقها من أنبأها بحقيقة الأمر ، وبأن علياً هو الذى تمت له البيعة في
 المدينة ، فضاعت بذلك ضيقاً شديداً ، وأعلنت أنها كانت تؤثر انطباق
 السماء على الأرض قبل أن ترى علياً وقد أصبح للمسلمين إماماً ، ثم
 قالت لمن معها ردوني . فرجعوا بها أدرأجهم إلى مكة (١) .

ويقول أستاذا عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين : إنه كان
 معروفاً أن عائشة رحمها الله لم تكن تحب علياً ولا تهواه ، بل كان معروفاً
 أنها كانت تجدد عليه موجدة شديدة منذ حديث الإفك ، حين أراد
 على أن يواسى النبي صلى الله عليه وسلم فأشار عليه بأن يطلقها وقال له :
 « إن النساء غيرها كثير » . وكان ذلك قبل أن ينزل الله براءتها في القرآن .
 فلم تنس لعلى قوله ذلك ، وكانت عائشة شحصية من أقوى
 الشخصيات التى عرفها تاريخ المسلمين في ذلك العهد لم تكن رقيقة
 كأبائها ، وإنما كانت شديدة كعمر على احتفاظ منها بكثير مما ورثت
 العرب عن جاهليتها ، فكانت تحفظ الشعر وتكثر من حفظه وإنشاده .
 والتمثل به ، حتى إنها رأت أباهما وهو يحتضر فتمثلت قول الشاعر :

(١) الفتنة الكبرى لعبد الأدب العربى الدكتور طه حسين .

لعمرك ما يغني الثراء عن الفقى إذا حشرت يوماً وضاق بها الصدر
وسمعها خليفة رسول الله أبوها فقال لها كالمكر عليها «بخ بخ
يا أم المؤمنين ! هلا تلت قول الله عز وجل :

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

وكانت من أشد نساء النبي إنكاراً على عثمان ، لم تتحرج أن تصيح
به من وراء سترها وهو على المنبر حين عاب عبد الله بن مسعود فأسرف
في عيبه ، ولم تكن تتحفظ من الاعتراض على كثير من أعمال عثمان
ومن سيرة عماله ، حتى ظن كثير من الناس أنها كانت من المخرضين
على الثورة به .

ويعتقد الأستاذ العميد أن أم المؤمنين عائشة كانت تنكر على عليّ
أمرين آخرين : أحدهما لم يكن لعلى فيه خيرة ، فقد تزوج فاطمة بنت
رسول الله ورزق منها الحسن والحسين ، فكان أبا الذرية الباقية للنبي ،
ولم يتح لها هي الولد من رسول الله مع أنه قد أتيح للاربية القبطية أم
إبراهيم في أواخر أيام النبي فكان هذا العقم يؤذيها في نفسها بعض الشيء
ولا سيما أنها كانت أحب نساء النبي إلى النبي .

أما الأمر الآخر فهو أن عليّاً قد تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة
أبي بكر رحمه الله ، وأسماء الخثعمية هي أم محمد بن أبي بكر الذي نشأ
في حجر عليّ . .

ويقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد : إنه لما بويح على في المدينة لم تكن السيدة عائشة من أنصاره ولا مع الباقيين على الحيدة بينه وبين خصومه ، ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه الصلاة والسلام في مسألة الإفك التي قيل إنه أشار فيها بتطبيقها ، فخرجت إلى البصرة مع المطالين بثأر عثمان . .

أما السيدة الدكتوروة زاهية قدورة^(١) فترى أن بين الإمام على والسيدة عائشة خصومة ترجع إلى أسباب كثيرة منها :

١ - كانت عائشة أول زوجة نبي بها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها أم فاطمة ، ولقيت منه دلالةً وحباً ، فأنار ذلك في نفس فاطمة الزهراء زوجة الإمام على الألم والامتعاض ، ولاشك أن ذلك انتقل بواسطتها إلى الإمام على ، وكانت السيدة عائشة تشعر بهذا التوتر في العلاقات بينها وبين فاطمة ، ثم بالتالي مع على ، ولم يكن الأمر يخلو من دعاة السوء الذين ينقلون الكلام من جهة إلى أخرى فتزداد العلاقات توتراً فتجد فاطمة من زوجها ملجأً تشكو إليه وتجد عائشة في أبيها مرجعاً تتألم لديه .

٢ - إلى جانب هذا العامل سبب يماثله ذلك أن الرسول صلى الله عليه

(١) السيدة الدكتوروة زاهية قدورة هي رئيسة قسم التاريخ وصيدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة اللبنانية .

وسلم كان يحب فاطمة حباً شديداً وقد وضعها في مقام مريم^(١) بنت عمران ، فقال فيها (سيدة نساء العالمين) وإنها عديلة مريم بنت عمران - وقال فيها أيضاً : (يؤذيني ما يؤذيها ويغضبني ما يغضبها وإنها بضعة مني يربيني ما ربيها) .

ولا شك أن ذلك يثير في نفس عائشة ألماً فقد كانت تود ألا يشاركها في منزلتها أحد وألا يفوقها شخص في مكانتها .

٣ - وقد كان (لحديث الإفك) أبعد الأثر وأعظمه في نفس عائشة فحقدت على كل الذين اتهموها وكان الإمام منهم حتى إنه أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بتطليقها قائلاً : (والنساء سواها كثير) ، قبل أن يجرى في الأمر تحقيق عادل - في حين أنه وقف موقفاً يختلف كل الاختلاف عن هذا الموقف يوم اتهمت مارية القبطية بالتهمة التي اتهمت بها عائشة في (حديث الإفك) فإنه اهتم ببراءتها حتى أثبت ذلك - فكان موقف الإمام سبباً في أن يثير في نفس عائشة ألماً وحقداً وكان في رأيها بجانب العدل والحق لأنه كان بكيلين مختلفين .

٤ - وزاد الأمر تعقداً ما نقل لعائشة عن علي وفاطمة أيام محتبتها بحديث الإفك من أنهما أظهرتا شماتة سرّاً وقد ردت عليها يوم نزلت براءتها من عند الله وهو ما يفعله المتهم ضد الذين اتهموه وآذوه إذا ما برأه القضاء والعدل .

(١) بينت ذلك تفصيلاً في الجزء الأول من أهل البيت (فاطمة الزهراء) .

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن يؤذيها تقريب الرسول لعلى،
يلدغها في ذلك الحسد والغيرة وقد كان يسوء علياً وفاطمة ما تلقاه عائشة
من حب الرسول وما يلقاه أبوها أيضاً من تفضيل وإكرام .

٥ - وقد لعبت العوامل النفسية دورها العظيم في هذا الخلاف فلم
ترزق عائشة أولاداً وقد كان الرسول يحب أن يرزق أولاداً - ورزقت
فاطمة البنين والبنات - وكان الرسول يحبهم حباً جمياً حتى إنه تبناهم
وكان يسميهم أولاده ، فيشير ذلك في نفس الزوجة التي لم يرزقها الله بالولد
الغيرة الشديدة .

٦ - اختار الرسول صلى الله عليه وسلم في مرضه الأخير بيت عائشة
يمرض فيه وكان ذلك سبباً تفخر به في اختيارها وتفضيلها ، وكانت بقية
الزوجات ترجو أن تنال هذا الشرف - وكانت فاطمة وعلى يرجوان أن
ينالهما فخر إقامة الرسول عندهما ليخدماه - فالفخر الذي نالته عائشة
بهذا الاختيار قابله حقد عليها ممن فشل في تحقيق هذا الذي كان يرجوه .

٧ - وقد كانت خلافة أبي بكر سبباً في إثارة عاملين مختلفين عند
عائشة من جهة وعند فاطمة وعلى من جهة أخرى - أما عائشة فقد زهت
بما أصابها من خير فهي زوجة حبيبة الله من ناحية وهي ابنة خليفة رسول الله
من ناحية أخرى، وبالنسبة لعلى وفاطمة كانت مبايعة أبي بكر خيبة أمل
وصدمة لهما - ذلك أن علياً كان يظن أنه لن ينازعه أحد في هذا الأمر ،
وقد قال له عمه : (وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم امدد يدك

أبايعك ؛ فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يختلف عليك اثنان - قال : (يا عم وهل يطمع فيها طامع غيري !) - ولما تم الأمر لأبي بكر تلكاً على في بيعته وكانت فاطمة خلال ذلك تناضل في سبيل علي وتجادل في خلافة أبي بكر وكان علي وأنصاره يذيعون أن النبي أوصى لعلي فكانت عائشة ترد (متى أوصى إليه فقد كنت مسنده إلى صدرى ؟ أو قالت في حجري - فدعا بالطست فلقد انخث في حجري وما شعرت أنه مات فتى أوصى إليه ؟) .

لا شك أن أمراً كهذا لا يمكن أن يمر دون أن يزرع في النفوس - عند الفريقين - جفاء وقد زاد الأمر حدة حين أوصى أبو بكر لعمر؛ فكان ذلك عاملاً جديداً في نفس عليّ على أبي بكر وأثار شماتة في نفس عائشة وجدت لها رد الفعل الكافي في نفس الإمام علي .

٨ - اتهام علي لعائشة في أنها دبرت أمر إمامة أبي بكر الصلاة في مرض الرسول فنسب الإمام عليّ للسيدة عائشة أنها أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره فيلصل بالناس لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى قال : ليصل بهم أحدهم ولم يعين ؛ وكانت صلاة الصبح فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في آخر رمق يتهدى بين علي والفضل بن عباس حتى قام في المحراب ثم دخل فمات ارتقاع الضحى ؛ فجعل يوم صلاته حجة في صرف الأمر إليه وقال أيكم يطيب نفساً

أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة لصرفه عنها بل لمحافظة على الصلاة مهما أمكن فبويج على هذه النكته التي اتهمها على عليه السلام على أنها ابتدأت منها، وكان الإمام يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ويقول: «لأنه لم يقل صلى الله عليه وسلم إنكن لصويحبات يوسف إلا إنكاراً لهذه الحال وغضباً منها لأنها وحفصة تبادرنا إلى تعيين أبييهما وأنه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب» - هذه هي رواية الشيعة أما رواية السيدة عائشة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم أصر على أن يؤم أبو بكر الصلاة - وهذا اختلاف جوهرى له أثر فى مجرى الأمور حتى تغلبت كما يظهر فى ذلك الوقت رواية عائشة فباع المسلمون أبا بكر لما ثبت عندهم تقديم الرسول له .

٩ - وقد ظهرت نقمة عائشة على الإمام حينما توفيت السيدة فاطمة الزهراء - فيروى أن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم ذهبن يعزين فى وفاة الزهراء إلا عائشة، فإنها لم تذهب وادعت المرض وأنه نقل عن لسانها لعلى كلام يدل على السرور، ولا شك فى أن ذلك اتهم أملاه ما بينهما من أسباب الحقد؛ ولا نظن أنها كانت تتأخر عن أداء هذا الواجب الضرورى لو لم تكن مريضة حقاً .

هذه هى الأسباب التى ظهرت فى شكل خصومة انتهت بسفك كثير من الدماء فى موقعة الجمل .

ويقول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود : « لقد زود الماضي السيدة عائشة بلذخ من البغض ، ادخرته لابن أبي طالب منذ الساعة التي شهدته فيها لا يقف إلى جانبها حين حاكت حولها الألسن الباغية حديث الإفك ، وهي أيضاً مشبوبة الغيرة ككل حواء ، لا تستطيع أن تحرر قلبها من سلطانها القاهر ، وكأية أنثى كان صدرها يجيش بعواطف أمومة مختزنة تنتظر أن يعينها الزمن على إطلاقها لتحبوبها صغيراً تسعد به ، فلم يسعفها القدر بتحقيق حلمها الجميل وبقيت طوال الأعوام التي عاشتها زوجاً عاقراً ، لا تستطيع أن توثق الزوجية برباط من البتوة ؛ لكم ودت لو دفعت إلى محمد طفلاً من دمها ومن صلبه يفضى عليه فيض حنانه ، وتعيش هي على مدى الأحقاب في ذراريه ، ولكنها نعمة حرمتها فأحزنها الحرمان ، وما أحسبها إلا كانت تشعر بشيء في صدرها يشبه الحسرة وهي تنقل بصرها فترى زوجها الحبيب يهب رعايته فتاته الزهراء ، ويواليها عطفاً كانت تود عائشة لو أولاه طفلة تتمتع في عروقها دماء الزوجين ، غير أن خديجة نعمت دونها بهذه الميزة ، وعاشت في ذرية محمد بعد الموت إلى نهاية الأبد . خديجة الزوج الأولى التي عاشت رسول الله ربيع قرن لم تغضبه خلاله مرة ، وتزوجها وهو شاب وهي في طويقها إلى الكهولة ، فلم يجمع بينها وبين زوجة أخرى ، ولم تسعده امرأة بعدها بمثل ما أسعدته ، خديجة هذه تنال من حب محمد ما لم تستطع عائشة نواله ، وإن كانت فتاة حلوة صغيرة السن ؟ وتببه من الولد وهي عجوز ما عجزت

عنه الجميلة . الصغيرة ، وتبقى على الدوام ماثلة في خاطره بعد موتها ، لأنها لم تبرح أبداً قلبه ، وما أكثر ما سمعت عائشة رسول الله يذكرها أمامها بعبارات إعزاز ، كانت تشعر معها أن هذه الغائبة عن وجه الدنيا تستأثر دونها بأكبر نصيب من حب زوجها العظيم . . ولندع عائشة تفصح بلسانها عن شعورها الحقيقي إذ تقول : ” ما غرت على أحد من نساء النبي ما غرت على خديجة . . وما رأيتها ، ولكن كان النبي يكثر ذكرها . وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها في صدائق خديجة ، وربما قلت له كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة . . فيقول إنها كانت . . وكانت . . وكان لي منها ولد “ ، فهي باقية وإن ذهبت . . تعيش اليوم في خاطر محمد كما عاشت بالأمس في دنياه ، وتكاد تملأ عليه آفاق فكره لا يشغله عنها وجود عائشة ولا حسنها ولا صباها ، باقية أبداً في الزهراء الرقيقة وفي الحب الأبوى الكريم الذي يغيض به قلب رسول الله ، باقية أيضاً في حاجات نفس عائشة بقاء شعور الغيرة العجيب الذي لا يني يراودها في كل لحظة ، وهل آلم على نفس الزوج الصغيرة من إحساسها بالخوف من امرأة ماتت . . . وضعفها أمام شبح يطل على بيتها من خطل الماضي ، ويلتق ظلالاً قائمة على سعادتها الزوجية . . . الزمن لم يستطع أن يشفيها من هذا الخوف أو يحجب عنها صورة ضرتها الخطرة وراء سر النسيان . . . بل قد حالف خديجة ومضى يعيدها إلى الحياة مرات ومرات ، ويكررها في حفلاتها كما كررها في بناتها

وأولادها ، فإذا هي صور شتى تطالع عائشة كل يوم وتطوف عليها
 بيتها فتملاً سمعها وبصرها بعد أن كانت صورة واحدة لشبح يعيش
 في وهم الذهن . فأى خليط من المشاعر ، كان يحتاج نفسها كلما
 ألقت العين على محمد وهو يداعب حفلاته ويوليهم حنان قلبه الرحيب ،
 أمى الغيرة على الزوج الأولى التي صارت اليوم في أشخاصهم حقيقة
 تنجدد بعد أن قاربت أن تكون ذكرى . أم الحسرة على حرمانها الولد
 الذى حلمت أن يكون نسلًا لها من رسول الله تعيش خلاله على مدى
 الزمن السيار . أم الحقد على غريمها ابن أبى طالب وقد تفرد وحده
 بنقل سلالة زوجها الحبيب إلى الأحقاب ! !

كانت أنثى كأية أنثى . تسمع لوى قلبها وتلجى نداءه . فما خالفت
 طبيعة المرأة حين غارت وحين ملكتها الحسرة ، وحين حقدت ، فإن هي
 إلا واعينها التى تكلمت - برغمها - وتحركت ودفعتها إلى موقفها العدائى
 للإمام . وإذا نطقت الواعية فلها الكلمة المسموعة ، وضاع صوت
 العقل الهادئ الخفيض فى ضوضاء المشاعر الصخابة .

وعن علاقة الإمام على بالسيدة أم المؤمنين يقول^(١) سعيد الأفغانى :
 إنه إذا رجعنا ثلاثين سنة قبل مبايعة على بالخلافة نجد ثمة نقطة التحول
 التى فرضت على عائشة اتجاهها الذى اتجهته مع على ، ولم تستطع
 الإفلات منه ولا من عاطفتها العنيفة التى لم يخفف تتابع الأيام والسنين

(١) عائشة والسياسة (سعيد الأفغانى) .

من حزنها ، فالثابت أنه لم يجتمع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على شيء اجتمعهن على الغيرة الشديدة من السيدة عائشة ، لما خصها النبي صلى الله عليه وسلم من محبة إذ حلت من قلبه في المنزل التي لا تسامى ، والغيرة بين الضرائر أمر فطرى مألوف قل أن تنتزه عنه امرأة ، وكان على وزوجه السيدة فاطمة بنت الرسل يحاولان حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على التخفيف من حبه لعائشة ، ويسفران لبقية أزواجه بما يرضين ويغضب عائشة ، وأظن أن مثل هذه السفارة مما لا تغفروه أنثى البيته .

ذكر الرواة أن الغيرة اشتعلت يوماً في صدر أم سلمة لمشهد لمست فيه شدة حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة ، فأخذتها الغيرة وجعلت تسب عائشة وجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينهاها فتأبى ، وعابن النبي غليظاً في صدر عائشة على هذا العدوان ، فرأى من الحكمة أن ينفس عنه بالقصاص العادل ، فأمر عائشة بسبها كما سبها ؛ فانطلقت أم سلمة إلى علي وفاطمة - وكانا يخصصانها بعطف ورعاية ، وبقية أم سلمة في حزب علي حتى ماتت فقالت : إن عائشة سبها « وقالت لكم وقالت لكم » . فكره ذلك علي وقال لفاطمة : اذهبي إلى النبي فقولى « إن عائشة قالت لنا وقالت لنا . . . » . فأتته فذكرت ذلك له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها حبيبة أبيك ورب الكعبة » .

وكان هذا الدرس لم يرق لعلي ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم :

« أما كفالك الآن : قالت لنا عائشة وقالت لنا ، حتى أتتك فاطمة فقلت لها : إنها حبة أبيك ورب الكعبة ؟ » (١) . واصل مثل هذه السفارة قد تكرر فحفظت عائشة ذلك كله لعلی وفاطمة .

وينبغي ألا ننسى ونحن نذكر ما يقع مثله عادة بين الأحماء أن نشير إلى أمر آخر مهم كانت السيدة عائشة نفسها هي التي تغار ، ذلك أنها على شدة حظوتها عند الرسول صلى الله عليه وسلم وكثرة محبتها له لم ترزق منه الولد ، وكان عليه الصلاة والسلام كبير الشغف والفرح بأولاد بنته فاطمة كثير الرعاية لهم والحدب عليهم ، وكانت تشهد عائشة من مباشرته لهم العجب العجائب فتشتعل الغيرة في صدرها من الحسن والحسين وتمتد حتى تغار من أبيهما علي وفاطمة ، وهذا - وإن كان مبعثه الفطرة ومستفيضاً في كل الأسر - مما لا يجوز إهماله عند محاولتنا الرجوع في الخصومة بينهما إلى آثارها البعيدة الأولى .

ولئن كان من القريب الممكن أن نعتذر لعلی في هذه البوادر التي يكون مثلها في كل أسرة والتي رددنا أمرها إلى ما يكون عادة بين الأحماء ، إن الذي لا نستطيع الاعتذار له هو موقف علي من عائشة في حادث الإفك - لقد وقف منها علي - مع علمه ببراءتها - موقفاً غاية في القسوة . أفصح أبلغ إفصاح عما في نفسه نحوها من تأثر ، وإن مع عائشة الحق كل الحق في ألا تنسى له تلك البادرة التي كادت

(١) السط الثمين .

تعصف بروحها عصفاً لولا أن لطف الله فأنزل براءتها تنلى في القرآن حتى يوم الناس هذا .

رَوَّج المنافقون والموتورون من اليهود من أهل المدينة أمر الإفك شفاء لما يمزق قلوبهم من غيظ على نصرته الإسلام ودخول المدينة في حكمه ، وتحمل الرسول أذيتهم بصبر بالغ وحكمة واسعة ، ولم يكن يخفى عليه طهر عائشة وبراءتها ونيات المرجفين ، لكنه أمل أن ينزل الله عليه في أمرهم وحياً فلما استبطن الوحي دعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستأمرهما في فراق أهله فأتيا ، فأما أسامة فأنهى خيراً وأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله ، فقال : « يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً » . وهذا الجواب هو الجواب الوحيد الذي توحى به البديهة والروية معاً ، لكن علياً ذهب مذهباً آخر إذ أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطلق عائشة فقال له : « لم يضيق الله عليك والنساء غيرها كثير .. وأسأل الجارية تصدتك » . ولم يكتف بذلك بل قام إلى الجارية فضر بها^(١) ضرباً شديداً وهو يقول : « أصدقت رسول الله » ، فتقول الجارية : « والله ما أعلم إلا خيراً » ، ولعل علياً ظن هذا الرأي خيراً للرسول مهما جر على عائشة من سوء وظلم ، ولكن إنعام النظر يوحي بأن رأى علي لو عمل به لأعقب عواقب جد رخيمة ، تحطيم حياة عائشة البريئة وجميعه قلب النبي بأحب الناس إليه وحزنه

طول حياته كلما ذكر هذا الحادث ، وأين لأحد أن ينساه ؟ الحق أن من لطف الله بالنبي وآله أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يأخذ برأى الإمام عليه السلام ، وإن مثل هذا الموقف لا ينسى ولا ينتزع أثره من القلب مهما جاهد المرء نفسه ، ولم تنس عائشة - مع كل جهودها المبذولة في كبح عاطفتها - بادرة عليّ هذه حتى واراها التراب ، ولقد تغاقم في نفسها أثره مع السنين ووجهها - من حيث لا تشعر - وجهة كان فيها للمسلمين أذى بالغ وهي ترى أن فيها الخير لهم كل الخير ، نعم لقد كانت الأيام لا تزيده إلا نمرًا في نفسها حتى رأيناها مندفعة بقوة لا تغالب نحو حرب الجمل بعد ثلاثين سنة من هذا الحادث .

ويقول ابن أبي الحديد كما جاء في شرح نهج البلاغة (١) : لما خرجت السيدة عائشة رضي الله عنها على عليّ في خلافته جعلت أم سلمة تذكرها بهذا الحادث وتقول : « أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه - حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعليّ يناجيه فأطال ، فأردت أن تهجمي عليهما ، فميتك فعصيتي ، فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعت باكية فقلت : ما شأنك ؟ فقات : إني هجمت عليهما وهما يتناجيان ، فقلت لعليّ : أيس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام ، أفما تدعني يا ابن أبي طالب ويومى ؟ فأقبل رسول الله صلى الله

(١) يشكك كثير من الكتاب في صحة هذا القول .

عليه وسلم على وهو غضبان محمر الوجه فقال : ارجعي وراءك ، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان ، فرجعت نادمة ساخطة ؟

قالت : نعم — أذكر لك . . .

كذلك لما بويع أبوها أبو بكر الصديق قيل إن الإمام علياً امتنع هو وبنو هاشم حتى إذا انقضت على البيعة ستة أشهر وماتت السيدة فاطمة أقبل يبائع^(١) ، ومن طبيعة الأشياء أن تضطغن عائشة على من تخلف عن بيعة أبيها ورأى أنه أحق بالخلافة منه وألا تطيب له نفسها بخير .

وقد كتبنا في الجزء الأول من أهل البيت قصة « فذك » بالتفصيل وقلنا إنه لما قبض الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وآل الأمر إلى أبي بكر الصديق جاءت فاطمة تطلب من أبي بكر ميراثها . فاعتذر أبو بكر واختلف على وفاطمة مع الخليفة وكان ذلك موضع استياء من السيدة عائشة .

وهناك إشارات عارضة ، فعن عطاء بن يسار قال : جاء رجل فوقع في عليّ وفي عمار رضي الله عنهما عند عائشة فقالت : « أما علي فلست قائلة لك فيه شيئاً ، وأما عمار فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا ينجح بين أمرين إلا اختار أَرشدَهُما » .

(١) يراجع الكتاب الأول من أهل البيت « فاطمة الزهراء » .

كذلك عندما سئلت السيدة عائشة في مسألة الوصاية وكان السؤال :
 أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إلى علي ؟ فقالت : لقد كان
 رأسه في حجرى ، فدعا بالطست فبال فيها ، فلقد انحنث في حجرى
 وما شعرت به ، ففتى أوصى إلى علي ؟ (١) :

وروى الطبرى أنه روى عن عائشة أنها قالت : لما اشتد بالرسول
 وجعه دعا نساءه فاستأذنه أن يمرض في بيتى فأذن له ، فخرج رسول
 الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس
 ورجل آخر تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتى ، قال
 راوى الحديث : فحدثت بهذا الحديث عن عبد الله بن عباس فقال :
 « هل تدري من الرجل الآخر ؟ » قلت : « لا » قال : « على بن
 أبى طالب ، ولكنها لا تقدر على أن تذكره بخير وهى تستطيع » .

وحتى بعد انقضاء حرب الجمل وانتهاء الأمر بينهما على خير
 لم يزل ما بنفسها نحوه ، فقد ذكروا أنه لما انتهى إلى عائشة قتل على
 قالت متمثلة :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

فن قتله ؟ فليل : رجل من مراد . فقالت :

فإن يك نانياً فلقد نعاه غلام ليس في فيه التراب

فذكروا أن رينب بنت أبي سلمة كانت حاضرة فقالت : « ألعليّ
تقولين هذا ؟ » فقالت : « إني أنسى فإذا نسيت فذكروني » .

وبعض المعاصرين ومنهم الشيخ محمد أحمد فرج السنهوري يذكر
أن السيدة عائشة ما خرجت لقتال ، وما خرجت إلا لإقامة الحد على
البيعة قتل عثمان الذين أشعلوا الفتنة وسعوا في الأرض فساداً ولإطفاء
الفتنة والإصلاح بين الناس ، استأذن عليها عمران بن حصين
وأبو الأسود الدؤلي رسولا أمير البصرة عثمان بن حنيف وهي بالحفير فأذنت
لهما ، فدخلوا مسلما وقالوا إن أميرنا بعثنا إليك لتسألك عن مسيرك هذا ،
أعهد عهده إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم أم رأى رأيته ؟ فقالت ؟
ما مثل يغطي لبنة الخير وإن هذا الرأي رأيته ، وإن الغوغاء ونزاع القبائل
غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا عذر
فاستحلوا الدم الحرام وسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام
وحرمه الخلافة وحرمة الشهر الحرام ، فخرجت في المسلمين أعلمهم
ما أتى هؤلاء وما الناس فيه وراعا وما ينبغي لهم من إصلاح ، وقرأت :
(لا خير في كثير من نجواهم . . .) الآية . فهذا شأننا إلى معروف
نأمركم به ومنكر نهاكم عنه - غضبنا لكم من سوط عثمان ولا نغضب
لعثمان من سيوفكم ، فقال لها أبو الأسود : فما أنت وسيوفنا وسوط عثمان
وأنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرك أن تقرى في بيتك

فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض ، فقالت : وهل أحد يقاتلني ؟
 أو تقول غير هذا ؟ فقال الرسول نعم - فهي لم تلئت لقتال والقوم هم
 اللذين يهددون به من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويطالب بإقامة
 حدود الله ، وهو فرض على الناس كافة الرجال والنساء ، وأولى به العلماء
 ذوو المكانة وفي طليعتهم أم المؤمنين ، ولكن ما للأسود وهذا فليس
 اسماً وفعلاً وحرفاً وما الأسود وما فقه أم المؤمنين .

ويستمر الشيخ السنهوري في قوله ؛ فيذكر أن أم المؤمنين رضى الله
 عنها لم تعص الله ولم تقترف إثمًا بهذه الواقعة ، ولا ريب في أنها ندمت
 بعدها وما كان ندمها من أجل ذنب اقترفته ، وإنما كان لإخفاق قصدها
 النبيل ولقتل من قتل من الجانبيين ولا استمرار الفتن مشتتة بين المسلمين ،
 وما كانت تعنى شيئاً من هذا حينما استأذن عليها ابن عباس وهي في
 كرب الموت وغمه فقالت له : إني أجد عباً وكرباً وأنا مشفقة مما
 أخاف أن أهجم عليه ، فقال لها أبشرى فوالله لرسول الله أكرم على
 الله من أن يزوجه جمرة من جمر جهنم ، فقالت له : « فرجت عنى
 فرج الله عنك » ، فما كان إشفاقها من وقعة الحمل وما كان إشفاقها
 إلا من أجل حساب الحياة كلها ؛ وهذا شأن الأبرار المقربين ، ولقد
 سبقها في ذلك أبوها . وقد روى عن البخارى عن هشام بن عروة عن
 أبيه أنها أوصت ابن الزبير أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع .

ويختتم الشيخ السنهوري بحته بقوله : إن وقعة الحمل لم تنل من

نفسها إلا بقدر ما ذكرت ، ولم تمس مكانتها بين المسلمين أى مساس ،
 وبقيت طول حياتها العالمة المجتهدة التى يرجع إليها الجميع ذات المكانة
 الرفيعة ، وكانت تتحدث بفضل الله عليها غير مفاخرة ، وتقول 'سيدة
 عائشة : « فى سبع خصال ليست فى أحد من أزواج النبي صلى الله
 عليه وسلم : تزوجنى النبي صلى الله عليه وسلم بكرآ ، ولم يتزوج أحداً
 من نسائه بكرآ غيرى ، ونزل إليه جبريل بصورتى قبل أن يتزوجنى ،
 ولم ينزل بصورة أحد من نسائه غيرى ، ورأيت جبريل ، ولم يره أحد
 من أرواجه غيرى ، وكنت من أحبهن إليه نفساً والدا ، وكان جبريل
 ينزل عليه بالوحي وأنا معه فى شعار ، ولم يكن يأتيه وهو مع أحد من
 أرواجه غيرى ، ونزل فى آيات من القرآن كاد يهلك فى فقام من الناس ،
 ومات فى يومى وليتى وبين سحرى ونحرى .

وروى ابن سعد وابن أبى شيبه أنها قالت أعطيت تسع خلال
 ما أعطيتها امرأة : والله ما أقول هذا فخراً — نزل الملك بصورتى ، وتزوجنى
 لسبع ، وأهديت إليه لتسع ، وتزوجنى بكرآ ، وكان الوحي يأتيه وأنا وهو
 فى لحاف واحد ، وكنت أحب الناس إليه وبنت أحب الناس إليه ، ولقد
 نزلت فى آيات من القرآن وقد كادت الأمة تهلك فى ، ورأيت جبريل ولم يره
 أحد من نسائه غيرى ، وقبض فى بيتى لم يله أحد غيرى وغير الملك .
 أما الشيعة فيرون أن السيدة عائشة أخطأت بخروجها على الإمام
 العادل مظهرة الطلب بدم عثمان ، وهى كانت من أعظم المحرضين

عليه ، وكانت تقول ما هو معروف مشهور ، وتخرج قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تركت عثمان وهو محصور لم تنصره ولم تحرض على نصره ، وخرجت إلى مكة فبقيت فيها حتى قتل ، ثم خرجت من مكة تريد المدينة وهي لا تعلم بقتله ، روى الطبري وابن الأثير أنها لما كانت بسرف لقيها ابن أم كلاب وهو من أخوالها فقالت له : مهم ؟ قال : قتل عثمان ، قالت : ما صنعوا ؟ قال : أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، وحارت بهم خير حار ، اجتمعوا على بيعة علي : فقالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ، ردوني ، ردوني . فانصرفت إلى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً . والله لأطلبن بدمه ؛ فقال لها : ولم والله ؟ إن أول من أمال حرفه لأنك ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر ، قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول ، فقال لها ابن أم كلاب :

فمنك البداء ومنك الغير	ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام	وقلت لنا إنه قد كفر
فهينا أطعناك في قتله	وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا	ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرأ	يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها	وما من وفي مثل من قد غدر

وقد أمرت أن تقرر في بيتها بقوله تعالى : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ
وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) .

ويعتذر المعتذرون لها بأنها اجتهدت فاخطأت أو أذنبت فتابت ورحمة
الله واسعة ، ويصعب علينا^(١) التصديق بأن هذا كان اجتهاداً . وإذا
جردنا أنفسنا عن التقليد ونظرنا نظراً لم يتأثر بشيء وجدناه بعيداً عن
الاجتهاد غاية البعد ، وقد قال البعض من الشيعة :

عاش ما نقول في قتالك سلكت فيه سبل المهالك

ويا حميراً سبك محرم ولأجل عين ألف عين تكرم

وروى أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبين بسنده أنه لما جاءها
قتل على بن أبي طالب سجدت ، وروى فيه أبو الفرج أيضاً ومحمد
ابن سعد في الطبقات وذكره المرزباني في معجم الشعراء والطبري في
تاريخه وابن الأثير في الكامل : أنه لما أتاها نعيه تمثلت :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم قالت : من قتله ؟ قيل : رجل من مراد : فقالت :

فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس في فيه التراب

قال أبو الفرج : ثم تمثلت :

ما زال إهداء الصغار بيننا شتم الصديق وكثرة الألقاب

(١) أعيان الشيعة (السيد محسن الأمين) الجزء الأول - القسم الثاني .

حتى تركت كأن قولك فيهم في كل مجتمع طنين ذباب

إلى هنا أجدني قد أجبت عن السؤال الذي طرحته عن سبب خروج السيدة عائشة رضی الله عنها ، ثم أجدني أطرح السؤال الثاني والأخير ، وهو : على من تقع تبعة حرب الحمل المشثومة ؟ ويحيب عن هذا السؤال الأستاذ سعيد الأفغانى فيقول : إن الذى يحمل شر هذه الفتنة مباشرة هم الذين حملوا إثم قتل عثمان والتأليب عليه ، فالسبيون هم الذين ائتمروا بالحيثين وقد أشرفوا على الصلح وأسرعوا فباغتوا الطرفين بإنشأب القتال - وأعجلوها عن التروى والتثبت ، فعليهم إذن وحدهم جريمة هذه الألوف الخمسة عشر من الدماء المهرقة ، كما كان عليهم وحدهم إثم قتل عثمان مباشرة ، فإذا بلغنا من عايهم التبعات الثانوية (غير المباشرة) فنن قصر أو أخطأ فى اجتهاده أو انصاع إلى طموح نفسه أو غلبته منافسته لأخيه ؛ وجدنا ترتيب أنصبأهم من التبعة فى حرب الحمل على ترتيبها فى الحملة على الخليفة عثمان رحمه الله : من غش له استثنأراً بالمنافع ؛ أو تقصير فى حقه أو خذلان له أو مجاهرة بنقده ، فأوفأهم نصيباً منها الأمويون ثم طلحة فالزبير فعائشة فعلى :

١ - أما الأمويون فكانوا قد استغلوا قرابة عثمان أسوأ استغلال ، وأبدلوه بما كان يجب له عليهم من المناصحة والعفة : احتكاراً للأعمال واستثنأراً بالأموال وإبعاداً لمن كرهوا من أهل الكفأيات ، حتى كانت أعمالهم هذه أشد ما أرتث على عثمان ، فلما أن قتل انسلوا من أطراف

البلاد ، واجتمعوا بحمكة بعددهم وعددهم وما حملوا من أعمالهم من أموال الله : ينفخون في الشر ويحرضون على الطلب بدم عثمان ويستغلون أهواء كل من أحسوا منه كرهاً لعلى أو منافسة له ، وأظهروا ذلك كله ، وأضمرُوا من ورائه أمراً آخر : قتل طلحة والزبير ورؤوس الناس من سواهم ، وودوا أن يقتل غيرهم عائشة . . . ليخلص لهم الأمر ويرجع في بنى أمية وقد خلت الأرض من منافس لهم .

ويعد يوم الجمل بالنسبة للأمويين هو اليوم الذى كان لهم ما بعده : بحيث تولوا من قاتلوا فيه علياً وكافأوهم ، ولم يغتفروا لمن قصر فيه ، وهذا معاوية وقد صار خليفة يدخل عليه الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة فيجبهه بهذا القول : أنت الشاهر علينا السيف يوم صفين والمخذل أم المؤمنين .^(١) وبحق يعد الأمويون ، ورأسهم في هذه الفتنة مروان ، حلقة وسطى تلى السبئيين أصحاب التبعة المباشرة في هذه الدماء .

٢ - وأما طلحة - فكما كان أشد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على عثمان^(٢) ، كان هنا أيضاً أشد الناس على على وأكرههم لخلافته وأوفرهم سعيًا في التأليب عليه ، وأطولهم بدأً في تحريض الجماهير على المطالبة بدم عثمان وسوقهم إلى البصرة ، وقد علم : أن إقامة الحدود من حق الإمام لاحق الغوغاء ، وأن أولياء عثمان - وليس هو منهم - أولى

(١) تهذيب تاريخ ابن عساکر .

(٢) كلمة محمد بن سيرين (العقد الفريد ٣/٨٦) .

منه بهذه الدعوى ، وأن هذا الطلب لم يكن في وقته المناسب وأن ثمرته
إضعاف أمر عليّ لا النار الحقيقى لعثمان .

٣- وأما الزبير فأمره قريب من أمر طلحة وإن لم يبلغ مبلغه
فى لدد الخصومة والقوة فيها ، ولعل ابنه عبد الله أرفى منه نصيباً من
التبعة .

٤- وأما السيدة عائشة رضى الله عنها فنقدتها عثمان كان أشد عليه
لما لها من الحرمة والإجلال ونفاذ الكلمة ، وقد عرف الأمويون وطلحة
والزبير ما يكون لدعواهم من القوة إذا نهضت بها معهم عائشة ، وعرفوا
ما تكن من الكره لخلافة علي ، فما زالوا يقتلون لها فى الذروة والغارب
حتى نهضت لما أنهضوها ، وحملت من هذه الفتنة نصيبها ، ويكاد
يكون من المقطوع به أن الأمور لم تكن لتصل إلى العاقبة السيئة التى
انتهت بها هذه المأساة لو غابت أم المؤمنين عن فتنة الجمل ، ولقد عرف
الإمام مصيبتها فيها حق المعرفة حين قال : « حاربت خمسة
أطوع الناس فى الناس : عائشة »^(١) ، لقد كانت السيدة لهذه الفتنة -
من حيث لا تريد - روحها ، وكان مقامها فيها أقوى ما حفز الجماهير
على التطوع لها ، وعلى تهاقهم على الاسماتة بين يدي جمل عائشة ،
لقد كان فى طبيعتها ولوع عظيم بالبطولة وإعجاب بالشجاعة ومقت
للجبن ، لذلك لم تكن تنفك عن تحريض الناس وتقوية قلوبهم ،

وكان لهذا التحريض والتقوية أثرهما البالغ في الاستماتة بين يديها على ما مر بك ، ولقد أثر عنها قولها : « إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير - كلما خفقت الريح خفقت فأفأ للجبناء » . هذا وقد أكثر الناصحون من أخواتها أمهات المؤمنين وأصحاب رسول الله الأجلاء وعقلاء أهل المصرين : البصرة والكوفة ، فلم تستجب لنصح أحد ، ونفذ قضاء الله ، والله سبحانه أعنى النساء من الدخول فيما هو من شأن الرجال ، فلم يكلفهن سياسة ولا إدارة ولا إثارة جماهير ولا تجييش جيوش ولا تأليباً على الخلفاء ، فإن باشرن شيئاً من هذا كان ذلك هو الفتنة عينها ، وكان المجتمع حينئذ يعالج داء دخيلاً في كيانه ينذر بالشر المستطير .

٥ - وأما الإمام فالحق أنه لا يحمل هنا من التبعة شيئاً - لقد فر من الشر فراراً - صبر عليه وطاوله ، وغاب عن وجهه وأشر يلاحقه ، وكان أكره الجميع للفتنة ولإراقة الدماء ، لكن المحافظة على وحدة الأمة وواجب القضاء على الفتن ألزمه المبادرة إلى المخالفين ، فأرسل الرسل والمفاوضين وبذل من نفسه خير ما يبذل امرؤ بعيد عن الشر هرأب منه ، وقد وجه الفريقين إلى الصلح حتى كاد يتم لولا عنصر الشر في جيشه : السبيون .

بقي أن أقول قبل أن أختتم هذا الموضوع إنه ليس شيء أدل على استفظاع الناس ما قامت عنه فتنة الحمل من حال أصحاب الحمل أنفسهم كما سيأتي بيانه :

١- لقد ندم طلحة ، وأصابته حيرة قاتلة ، وكان يكثر التفكير ويقول : « اللهم خذ مني لعثمان حتى يرضى » .

٢- وكان الزبير أكثر ندماً ويقول : « مغلوب مطلوب يغلبني ابني ويطلبني ذنبي » ، حتى لقد هم بترك القتال في أوله لولا تعبير ابنه عبد الله وتعبير عائشة . ثم ترك القتال واعتزل .

٣- أما علي فقد بينت حسرته لما رأى القتلى وعظم الحسارة بهم .

٤- أما السيدة عائشة فقد قلبت صفحات التائبين والنادمين فما رأيت حسرة أشد من حسرتها ، ولا توبة أصدق ولا أخلص من توبتها ، ولا ندماً أعظم لإيلاماً من ندمها ، لقد قتلها الندم قتلاً ، فما أكثر ما تمت أن لم تكن خلقت ، وما أكثر ما تمت أن تكون حجراً أو مدرة ، وكانت تقول : « لأن أكون قعدت في منزلي عن مسيرى إلى البصرة أحب إلى من أن يكون لى عشرة من الولد - كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » .

والظاهر أنها كانت تكثر من هذه الحسرة ، فقد روى الدينورى عنها مثل هذا الحديث ؛ قالت : « وددت لو قعدت في بيتي ولم أخرج في هذا الوجه ”تعني إلى البصرة“ ، لكان أحب إليّ من عشرة أولاد لورزقتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على فضل عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام وعقله وزهده » .

ولقد ذكر عندها يوم الحمل مرة فيبكت حتى ظنوا أنها لن تسكت ،

وكانت إذا قرأت قوله تعالى: « وقرن في بيوتكن . . . » بكت حتى تبلّ خمارها . وعندما وافاها أجلها وقالوا لها : « تدفينين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » ؟ قالت : « لا - إني قد أحدثت بعده ، ادفنوني مع أزواج النبي في البقيع » - (١) وكانت أم المؤمنين تقول أيضاً : « ليتني لم أخلق » ، « يا ليتني كنت شجرة أسبح وأقضي ما على » ، « والله لو ددت أني كنت شجرة - والله لو ددت أني كنت مدرة » ، « لو ددت أن الله لم يكن خلقتني شيئاً قط » ، « ليتني مت قبل يوم الحمل بعشرين سنة » .

(١) الطبري .

المأساة الثانية

الإمام معاوية :

نقدم لهذه المأساة بما قاله أستاذنا العميد الدكتور طه حسين :
كان المسلمون من أهل المدينة يعرفون مكان العمال الذين أمرهم عثمان
على الأمصار ، ويقدرون أنهم جميعاً ، أو أن بعضهم على الأقل -
سينكرون الخلافة الجديدة ويجادلون الخليفة في سلطانه غضباً لعثمان
الذي ولاهم ، وكانوا يخافون من هؤلاء العمال بنوع خاص معاوية
ابن أبي سفيان عامل عثمان على الشام ، يعرفون قرابته من الخليفة المقتول ،
ويعرفون طاعة أهل الشام له لطول إقامته فيهم وإمرته عليهم منذ عهد
عمر ، وكانوا يعرفون مكانة معاوية من بني أمية ، ويعرفون الحصومة
القديمة بين بني أمية وبني هاشم قبل أن يظهر الإسلام . وحين انتقل
النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بدينهم الجديد إلى المدينة أصبح
أبوسفيان قائد قريش بعد أن قتل قاداتها وسادتها يوم بدر ، وهو الذي
أقبل بقريش يوم أحد فتأرقتلى بدر من المشركين ، وامرأته هند
أم معاوية هي التي أعتقت وحشياً أن قتل حمزة ، فلما قتله أقبلت
على ميدان الموقعة ، وبحثت عن حمزة حتى وجدته بين القتلى ، فبقرت

بطنه واستخرجت كبده فلاكتها . وأبو سفيان هو الذي قاد قريشاً يوم الخندق ، وألب العرب على النبي وأصحابه ، وأغرى اليهود حتى نقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ وأبو سفيان هو الذي ظل يدبر مقاومة قريش للنبي وكيدها له ومكرها به حتى كان عام الفتح ، فأسلم حين لم يكن له من الإسلام بد .
ومهما يقل الناس في معاوية من أنه كان مقرباً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه ، ومن أنه كان من كتاب الوحي ومن أنه أخلص للإسلام بعد أن ثاب إليه ، ونصح للنبي صلى الله عليه وسلم وخلائه الثلاثة ، مهما يقل الناس في معاوية من ذلك ، فقد كان معاوية هو ابن أبي سفيان قائد المشركين يوم أحد ويوم الخندق ، وهو ابن هند التي أغرت بحمزة حتى قتل ، ثم بقرت بطنه ولاكت كبده ، وكادت تدفع الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه إلى الجزع على عمه الكريم ، وكان المسلمون يسمون معاوية وأمثاله من الذين أسلموا بأخرة ومن الذين عفا النبي عنهم بعد الفتح واللقاء ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

هذه مقدمة لا بد منها للمأساة الثانية التي جاءت الإمام علياً من بلاد الشام ، وكانت بدون شك أشد هولاً ، ولا تزال آثارها باقية إلى الآن ، فالخصم^(١) في الشام عنيف يحيط به جند أو لو قوة وأولو بأس

(١) الفتنة الكبرى - عيد الأدب العربي الدكتور طه حسين .

شديد ، فأما عنف هذا الخصم وهو معاوية فيمكن أن نقدره حين
فلاحظ أنه ابن أبي سفيان الذي حارب النبي بعد بدر فأبلى في حربه
أشد البلاء وأقواه ، وأظهر في هذه الحرب قوة وقسوة وكيداً ودهاء ،
ولم يسلم إلا بأخرة حين لم ير من الإسلام بدءاً ، وحين لم يكن له إلا
أن يختار بين الإسلام والموت ، وقد ورث معاوية عن أبيه قوته وقسوته
وكيده ودهاءه ومرونته كذلك ، ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكراً
للإسلام وبغضاً لأهله وحفيظة عليهم ، وهم قد تروها يوم بدر ،
فثار لها المشركون يوم أحد ، ولكن ضعفها لم يهدأ وحفيظتها لم تسكن
حتى فتحت مكة ، فأسلمت كارهة كما أسلم زوجها كارهاً .

وزيادة على ذلك أن معاوية كان ينتظر الإمام في ثبات وثقة
واطمئنان ، وكان معاوية يسير سيرة أقل ما توصف به — كما يقول
أستاذنا العميد الدكتور طه حسين — أنها سيرة الرجل العربي الجواد
الداهية ، يعطى الناس ما وسعه إعطاؤهم ، ويصل الذين يريد أن
يتألفهم من الرؤساء والقادة لا يجد في ذلك بأساً ولا جناحاً ، فكان
الطامعون يجدون عنده ما يريدون ، وكان الزاهدون يجدون عند على
ما يحبون ، أما الإمام فقد كان مؤمناً بالخلافة كما تصورها المسلمون
أيام أبي بكر وعمر ، وفي الصدر الأول من خلافة عثمان ، يرى أن من
الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس لا يؤثر منهم أحداً
على أحد ، ويرى أن من الحق عليه أن يحفظ على المسلمين ما لهم ،

لا ينفقه إلا بحقه ، فهو لا يستطيع لنفسه أن يصل الناس من بيت المال ، بل هو لا يستطيع لنفسه أن يأخذ من بيت المال لنفسه وأهله إلا ما يقيم الأود لا يزيد عليه . جاءه أخوه عتيل بن أبي طالب مسترفداً فقال لابنه الحسن : إذا خرج عطاى فسر مع عمك إلى السوق فاشتر له ثوباً جديداً ونعلين جديدتين .

وكما بينت كان معاوية ينتظر في اطمئنان لم يتعرض للحرب ، على حين يهتم الإمام بأمر المؤمنين ومن معها يريد أن يردهم إلى الطاعة ، وكانت نتيجة حرب الجمل كما بينت أن اقتتل الشيوخ من المهاجرين والأنصار ، فقتل طلحة والزبير وعادت أم المؤمنين إلى المدينة ، وكثر القتل في أهل البصرة والكوفة ، وبذلك يكون الإمام قد خاض حرباً منكراً قتل فيها من شيعته ومن عدوه خلق كثير .

وكانت سياسة معاوية تعظيم قتل عثمان ، وكان معاوية قد أشار على عثمان قبل قتله برأى قال فيه : «الرأى أن تأذن لى بضرب أعناق هؤلاء القوم ، قال : من ؟ قال : على وطلحة والزبير . قال عثمان : سبحان الله ! . . أقتل أصحاب رسول الله بلاحدث أحدثوه ، ولا ذنب كبوه ؟ قال معاوية : فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك . قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله فى أمته بإهراق الدماء .

قال معاوية : فاختر منى إحدى ثلاث خصال .

عثمان : ما هي ؟

معاوية : أرتب لك ههنا أربعة آلاف من خيل أهل الشام ،
يكونون لك رداءً وبين يديك يداً .

عثمان : من أين أرزقهم ؟

قال : من بيت المال .

عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين
لحرز دمي ؟ لا فعلت هذا !

قال : فتانية .

قال : وما هي ؟

قال : فرقههم عنك فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد ، واضرب
عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته .

قال عثمان : سبحان الله ! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول
الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم ؟
لا أفعل هذا .

قال معاوية : فتالفة .

قال : وما هي ؟

قال : اجعل لي الطلب بدمك إن قتلت .

قال عثمان : نعم هذه لك . إن قتلت فلا يظل دمي^(١) .

وفي رواية أخرى أن معاوية قال له غير ذلك : اخرج معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك مالا تطيقه . قال : لا أبغى بجوار رسول الله بدلا .

ويعلق الأستاذ العلامة المرحوم العقاد على الآراء التي أشار بها معاوية على الخليفة فيقول : ما من رأى منها إلا النفع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان ، وربما كان في معظمها ما يضره ولا يجديه ، فليس قتل على وطلحة والزبير بالأمر الهين الذي يدفع الشر عن الخليفة ، وليس هو بالخطة التي يختارها معاوية لنفسه لو كان في موضع عثمان ، وقد أعفى معاوية نفسه من التضييق على صعصعة ورهطه كما ضيق عليهم عبد الرحمن بن خالد ، فليس من خطته التي يختارها لنفسه ويحمل تبعها على عاتقه أن يقتل ثلاثة من أقطاب الصحابة كعلي وطلحة والزبير ، كما أشار على عثمان ، وإنما يبوء عثمان بتبعها ويترك الأمر من بعده لمعاوية بغير منافس يناقسه عليها بعد مقتل الثلاثة الذين كانوا مرشحين لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر ، أما أهل الشام فهم في ولايته لا يعرفون أحداً غيره يناقسه باسمهم عند اختلاف المختلفين ، وليس ثمة مختلفون إذا نفذ القضاء في الأقطاب المقتولين .

وأما الإشارة على عثمان بإقامة أربعة آلاف من خيل الشام يحرسونه ؛

(١) الإمامة والسياسة .

فهو تسليم الحجاز إلى يدي معاوية في حياة الخليفة وبعد حياته ، فلا يقدر أحد على بيعة فيه غير البيعة التي يرضاها ، ولا تقع هذه البيعة أصلاً لمن يستجيب لها أولاً يستجيب ، والخروج من المدينة إلى الشام مع معاوية ينقل العاصمة إلى دمشق ، ويجعل القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها ، وما من أحد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية في جميع الحالات ، والدليل على منفعة معاوية بتلك المطالب التي عرضها على الخليفة في شدته مطلبه أن تكون له ولاية الدم بعد مقتله ، فإنه بمثابة ولاية العهد بإذن صاحب الأمر ؛ إذ كان القصاص إنما يتولاه القائم بالشرعية حيث تقام حدود الدين ، ولم يكن عثمان ليخشي عليه القتل من فرد يعتدى عليه غيلة فيكون عمل ولى الدم أن يقتاده إلى الحاكم القائم بالشرعية ، ولكنه خشي عليه القتل من جماعات نائرة لا يتولى إدارتها والقصاص منها غير صاحب سلطان أقوى من سلطانها وسلطان من تؤيده وتطيعه على شرطها ، فإذا كان معاوية قد طلب ولاية الدم بعد مقتل عثمان فقد طلب ولاية العهد ، وفارقه وهو يعلم أنه مقتول .

وأوشك الخليفة أن يقتل ، فإذا نظرنا في أرجاء العالم الإسلامي يومئذ لم نجد أحداً أقدر على نجاته من معاوية ، لأنه الوالى المستقر ولايته منذ عشرين سنة يقضى عنها كل من يعاديه ويبقى فيها كل من يواليه ، وغيره من الولاة في ذلك العهد بين معزول أو معتزل أو الإمام على

مهدد في سلطانه كما هدد الخليفة في عاصمته ، ومن كان حول الخليفة من أسرياء المدينة لم يكن في وسعه أن ينصره بقوة أقوى من الدولة وحراسها وأشباعها ، فإذا جمع السفهاء جماهم الذي يغلب الدولة على قوتها وهيبتها فحرى ألا يصده زاجر ولا ناصح ممن لا يملكون غير الزجر والنصيحة ، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي أن ذوى الجرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم كلما أخذهم باللوم لأنهم لم ينصروه ، ومن هؤلاء أبو الطفيل عامر بن واثلة الصحابي .

قال له معاوية : ألسنت من قتلة عثمان ؟

قال أبو الطفيل : لا ، ولكنني ممن حضره فلم ينصره .

قال : وما منعك من نصره ؟

قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار .

قال معاوية : أما لقد كان واجباً عليهم أن ينصروه ؟

فقال أبو الطفيل : فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك

أهل الشام .

فقال معاوية : أما طلبي بدمه نصره له ؟

فضحك أبو الطفيل ثم قال : أنت وعثمان كما قال الشاعر !

لا أفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

ووقعت الواقعة ، ومات الخليفة قتيلًا ، وذهب معاوية يطالب

بدمه ، وينكر على عليّ بيعته لأنه لا يسلمه قتلة عثمان ممن يذكروهم إجمالاً أو يسميهم بأسمائهم ، وآل الأمر كله بعد حين إلى معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء ، فلم يأخذ واحداً منهم بجريرة مشهودة ، ولم يحاسب أحداً على جريرة مستورة تتطلب الإشهاد ، وكان يلقي الرجل منهم فلا يزيد على أن يسأله كما سأل أبا الطفيل : ألت من قتلة عثمان ؟ ثم يصرفه في أمان ، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مزوداً بالعطاء .

وظهر من مبدأ الحصومة أن الغيرة على عثمان لم تكن تلك الغيرة اللاعبة التي تثير الثائرة وتضرم الحروب ، فإن معاوية قد حالف عمرو بن العاص وكافأه بولاية مصر ، وهي ولاية عزله منها عثمان .

ولم يخف هذا الموقف الذي لا خفاء به على أبناء عثمان وبناته ، فقد قدم معاوية بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن عفان ، فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباه ، فقال معاوية : يا بنت أخي ، إن الناس أعطرونا طاعة وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب ، وأظهروا لنا ذلاً تحت حقد ، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، فإن نكثناهم فكثروا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولأن تكوفاً ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوفاً امرأة من عرض الناس^(١) .

فالمطالبة بدم عثمان إنما كانت — كما يقول المرحوم الأستاذ عباس

العناد - قضية قائمة حين كانت لازمة للتحريض على عليّ وبث الدعوة والتمكين لمعاوية ، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن في وسع علي أن يفعله سكت عن الثأر وحديثه ، إلا ما كان من قبيل الحوار العقيم في المجالس ، وقبل من نفسه العذر ضعيفاً هزيباً ، ولم يكن يقبله قوياً معزراً بالواقع والبيئة ممن لا لوم عليه ، وأخيراً فإن كل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبل مقتله وبعده ثابت النفع لمعاوية غير ثابت النفع لعثمان ، وبذلك تكون الثورة التي ثارها معاوية باسم عثمان ثورة في طلب الملك أعوزتها الحجّة فالتمسها من مقتل الخليفة الشهيد !

رسول الإمام إلى معاوية :

بعث الإمام علي جريز بن عبد الله البجلي إلى معاوية ، وانطلق جريز حتى أتى الشام ، ودخل على معاوية فقال : « أما بعد يا معاوية فقد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصريين وأهل الحجاز واليمن ومصر وأهل العروض وعمان وأهل البحرين واليامة ، ولم يبق إلا هذه الحصون التي أنت بها لو سال عليها سيل من أوديته غرقها ، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل ، ودفع إليه كتاب الإمام علي وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » سلام عليك . أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمته وأنت بالشام ، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ،

على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل ومموه إماماً كان ذلك لله رضىً ، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو رغبة دوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى ، وأصله جهنم وساءت مصيراً ، وإن طلحة والزبير يابعاى ثم نقضا بيعتى وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتها بعد ما أعذرت ليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى قبلك العافية ، إلا أن تتعرض للبلاد ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك ، وقد أكثرت فى قتلة عثمان ، فأدخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله ، وأما تلك التى تريدنا فخذعة الصبي عن اللبن ، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخليفة ولا يدخلون فى الشورى ، وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايعه ، ولا قوة إلا بالله .

فكتب معاوية رسالة أرسلها إلى الإمام على مع أبى مسلم عبد الرحمن جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . من معاوية بن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب . أما بعد فإن الله اصطفى محمداً بعلمه ، وجعله الأمين على وجهه والرسول إلى خلقه ، ثم اجتبى له من المسلمين أعواناً

أيده بهم فكانوا في المنازل عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، وكان أنصحهم لله ورسوله خليفته ثم خليفة خليفته ثم الخليفة الثالث المقتول ظلماً عثمان ، فكلهم حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، عرفنا ذلك في نظرك الشزر . وقولك الهجر . وتنفسك الصعداء ، وإبطائك عن الخلفاء ، في كل ذلك تقاد كما يقاد الحمل المخشوش ، ولم يكن لأحد منهم أشد حسداً منك لابن عمك ، وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقربته وفضله ، فقطعت رحمه ، وقبحت حسنه ، وأظهرت له العداوة ، وأبطنت له الغش ، وألبت الناس عليه حتى ضربت آباط الإبل إليه من كل وجه ، وقيدت الخيل من كل أفق ، وشهر عليه السلاح في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل معك في المجلة وأنت تسمع الهائعة لا تدري عنه بقول ولا فعل ، ولعمري يابن أبي طالب لو قمت في حقه مقاماً تنهى الناس فيه عنه وتقبح لهم ما اهتملوا منه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً ، ولحا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانية له والبغى عليه ، وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظنين : إيوائك قتلته فهم عضدك ويدك وأنصارك ، وقد بلغني أنك تتنى من دم عثمان وتبرأ منه ، فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به ، ثم نحن أسرع الناس إليك ، وإلا فليكن بيننا وبينك السيف ، والذى لا إله غيره لنظلين قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله ، والسلام .

ومن هذا الخطاب المملوء بالمغالطات نرى :

- ١ - أن معاوية لم يكن يريد السلم .
 - ٢ - أن معاوية اتهم الإمام بحسد الخلفاء وعدم الإسراع في بيعتهم ، وأنه لم يبايع إلا مضطراً .
 - ٣ - أنه يتهم أيضاً الإمام بحسد ابن عمته والقعود عن نجاته حتى ضيق عليه الثائرون به .
 - ٤ - يطلب معاوية من الإمام أن يثبت براءته من دم عثمان بتسليم قاتليه .
 - ٥ - أنه تحدى الإمام بزعمه للإمام أنه إذا دفع إليه قتلة عثمان أسرع ومعه أهل الشام إلى بيعته .
- وقد بينت فيما سبق بالتفصيل أن تلك الغيرة على عثمان لم تكن إلا حجة فقط لكي يستر بها مهاجمته للإمام ، كما بينت أن هذا الموقف لم يكن خافياً على أبناء عثمان ولا على الناس جميعاً .

الإمام يرفض ويرد :

وقد رفض الإمام ما طلبه معاوية ، ورد بالكتاب الذي قال فيه :
 « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبي سفيان ، أما بعد ، فإن أخا خولان قدم على بكتاب منك تذكر

فيه محمداً وما أكرمته الله به من الهدى والرحمن ، فالحمد لله الذى صدق له الوعد ويمكن له فى البلاد وأظهره على الدين كله ، وقمع به أهل العداوة والشتان من قومه الذين كذبوه وشنعوا عليه ، وظاهروا عليه وعلى إخراج أصحابه ، وقلبوا له الأمور حتى ظهر أمر الله وهم له كارهون ، فكان أشد الناس عليه الأذى فالأذى من قومه إلا قليلاً ممن عصم الله .

وذكرت أن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه اختار له من المؤمنين أعواناً أيده بهم فكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلهم خليفته وخليفة خليفته من بعده ، ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم ، وإن المصاب بهما لرزق جليل . وذكرت أن ابن عثان كان فى الفضل ثالثاً ، فإن يكن عثمان محسناً فسيلقى رباً شكوراً يضاعف الحسنات ويجزى بها ، وإن يكن مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً رحيماً لا يتعاطمه ذنب أن يغفره وإني لأرجو— إذا أعطى الله المؤمنين على قدر أعمالهم— أن يكون قسمنا أوفر قسم أهل بيت من المسلمين .

إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم فدعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له ، فكنا أهل البيت أول من آمن وأتاب ، فكثنا وما يعبد الله فى ريع سكن من أرباع العرب أحد غيرنا ، فبغانا قومنا الغوائل وهموا بنا المموم ، وألحقوا بنا الوسائط ، واضطرونا إلى شعب ضيق وضعوا علينا فيه المراصد ، ومنعونا الطعام والماء العذب ، وكتبوا بينهم كتاباً ألا يؤاكلونا ولا يشاربونا ولا يسابعونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا أو ندفع إليهم نبينا فيقتلوه

أو يمثلوا به ، وعزم الله لنا على منعه والذب عنه وسائر من أسلم من قريش أخلياء مما نحن فيه ، منهم من حليف ممنوع وذى عشيرة لا تبغيه كما بغانا قومنا ، فهم من التلف بمكان نجوة وأمن . فكثنا بذلك ما شاء الله .

ثم أذن الله لرسوله في الهجرة وأمره بقتال المشركين ، فكان إذا حضر البأس ودُعيت نزال قدم أهل بيته فوقى بهم أصحابه . فقتل عبيدة يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وجعفر يوم مؤتة ، وتعرض من لو شئت أن أسميه سميته لمثل ما تعرضوا له من الشهادة ، لكن آجالهم حضرت ومنيته أحرث .

وذكرت لإبطائي عن الخلفاء وحسدي لهم ، فأما الحسد فعاذ الله أن أكون أسررته أو أعلنته ، وأما الإبطاء فما أعتذر إلى الناس منه ، ولقد أتاني أبوك حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وباع الناس أبا بكر فقال : ” أنت أحق الناس بهذا الأمر ، فابسط يدك أبايعك “ ، وقد علمت ذلك من قول أبيك . فكنت الذى أبيت ذلك مخافة الفرقة لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية ، فإن تعرف من حتى ما كان أبوك يعرفه تصب رشكك ، وإلا تفعل فسيغنى الله عنك .

وذكرت عثمان وتألبيي الناس عليه ، وإن عثمان صنع ما رأيت ، فركب الناس منه ما قد علمت ، وأنا من ذلك بمعزل إلا أن تتجنى ، فتجنّ ما بدا لك . وذكرت قتلته بزعمك وسألتنى دفعهم إليك وما أعرف

له قاتلا بعينه ، وقد ضربت الأمر إلى أذنه وعينه فلم أره يسعني دفع من قبلي ممن أتمته وأظنته إليك . ولئن لم تنزع عن غيك وشقائك لتعرفن الذين تزعم أنهم قتلوه طالين لا يكلفونك طلبهم في سهل ولا جبل . . والسلام» .

وظاهر من هذا الكتاب أن الإمام علياً رضى الله عنه يريد أن يبرز أن أهل البيت احتملوا في الإسلام ما لم يحتمل غيرهم وما لم يحتمل أبو بكر وعمر وعثمان خاصة ، فهم لم يحصروا ، ولم يهجروا ، ولم يضيق عليهم في الرزق ، فأهل البيت إذاً أولى الناس بالنبي ، وأحقهم بالأمر بعده . ثم ذكر الهجرة وما كان من القتال في سبيل الله وذكر أن النبي ، كان يقلم أهل بيته لحماية أصحابه في مواطن البأس^(١) .

الحرب

وأخيراً تبين لأهل الشام وأهل العراق أن الحرب قائمة لا شك فيها ؛ يرى أهل الشام أن يثاروا للخليفة المظلوم ، ويرى أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار أن يكرهوا أهل الشام على البيعة والطاعة قبل كل شيء ، ويرى أهل الشام أن طاعة علي لا تلزمهم لأن الناس لم يبايعوه عن رضا منهم جميعاً ولأنه عطل حداً خطيراً من حدود الله وهو القصاص ممن قتل الخليفة المظلوم ، ويرى أهل العراق ومن

(١) الفتنة الكبرى للأستاذ الدكتور طه حسين .

معهم من المهاجرين والأنصار أن كثرة المسلمين الضخمة قد بايعت علياً في الحرمين والمصرين وفي مصر أيضاً فأصبحت طاعته واجبة ، وأصبح أهل الشام طائفة باغية يجب أن تقاتل حتى تنفيء إلى أمر الله .

رسالة الإمام إلى عماله

كتب الإمام على رضي الله عنه إلى عماله في الآفاق يأمرهم بالمسير إليه ، ويحث الناس على الجهاد معه ، فكتب إلى مخنف بن سليم عامله على أصبهان وهمدان : إذا أتيت بكتابي هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك وأقبل إلينا . وكتب إلى عبد الله بن عباس : أما بعد فأشخص إلى من قبلك من المسلمين والمؤمنين ، وذكرهم بلائى عندهم وغفوى عنهم ، واستبقائى لهم ، ورجبهم في الجهاد وأعلمهم الذى لهم في ذلك من الفضل . فقرأ عليهم ابن عباس كتاب على عليه السلام . وقال أيها الناس استعدوا للمسير إلى إمامكم وانفروا في سبيل الله خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم .

وقال هاشم بن عتبة : « سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه وحرّموا حلاله ، واستولاهم الشيطان ، ووعدهم الأباطيل ، ومناهم الأمانى حتى أزاعهم عن الهدى ، وقصد بهم قصد الردى ، وحبب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة

فيها كرهتتنا في الآخرة ، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً ، وأفضل الناس سابقة وقدماً ، وهم يعلمون منك مثل الذي علمنا ، ولكن كتب عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشرحة ببذل النصيحة ، وأنفسنا بنورك جذلة على من خالفك وذوى الأمر دونك ، والله ما أحب أن لى ما فى الأرض مما أقلت وما تحت السماء مما أظلت ، وأنى واليت عدواً لك أو عاديت ولياً لك » .

فقال على عليه السلام : « اللهم ارزقه الشهادة فى سبيلك والمرافقة لنبيك صلى الله عليه وسلم » .

وصعد الإمام المنبر وقال : « اعلّموا أن الله جعل أمّاس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه ، وتناول ما ليس له ، ومالا يدركه : معاوية وجنده الفئة الباغية الطاغية ، يقودهم إبليس ويدليهم بغروره ، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس عنى فإن الذود إلى الذود لإبل - ومن لم يزد عن حوضه يهدم . ثم إلى أمركم بالشدة فى الأمر والجهاد فى سبيل الله وألا تغتابوا مسلماً وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله » .

ماذا قال الحسن والحسين

وقام الحسن بن على عليهما السلام خطيباً - وقال : « إن مما عظم الله عليكم من حقه ، وأسبغ عليكم من نعمه مالا يحصى ذكره ، لا يؤدى

شكره ولا تبلغه صفة ولا قول ، ونحن إنما غضبنا لله ولكم ، فإنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدهم ، فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده ، ولا تخاذلوا فإن الخذلان يقطع نياط القلوب ، وإن الإقدام على الأسته نجدة وعصمة ، لأنه لم يجتمع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهدهم إلى معالم الملة .

والصلح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع»
 وقام الإمام الحسين فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا أهل الكوفة ، أنتم الأحبة الكرماء ، الشعار دون الدثار ، جدوا في إحياء مآثر دينكم ، وإسهال ما توعد عليكم ، ألا إن الحرب شرها ذريع ، وطعمها فظيع ، وهي جرع متحساة ، فن أخذ لها أهبها فذاك صاحبها ، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها فذاك قمن ألا ينفع قومه ويهلك نفسه .

القتال على الماء

سار الإمام على في جيشه الكبير . وكان معاوية قد سبقه وأنزل أصحابه في صفين ، ولكن أصحاب على لم يجدوا على الفرات شريعة يستقون منها ، ودعا الإمام صعصعة بن صوحان فقال : ائت معاوية فقل لنا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم ، وإنك قد قدمت بخيلك تقاتلنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالقتال ، ونحن من

رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك . وهذه أخرى قد فعلتموها
 حلتم بين الناس وبين الماء ، فخل بينهم وبينه حتى نلظف فيما بيننا وبينكم
 وفيما قدمنا له وقدمتم ، وإن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له وتدع
 الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا . فقال
 معاوية لأصحابه : ما ترون ؟ قال الوليد بن عقبة : امنعهم الماء كما
 منعه ابن عفان ، حصره أربعين يوماً بمنعونه الماء ولين الطعام ،
 اقتلهم عطشاً قتلهم الله . وقال عمرو بن العاص : خل بين القوم وبين
 الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك
 وبينهم . فأعاد الوليد مقالته ، وقال عبد الله بن سعد بن أبي سفيان وهو
 أخو عثمان من الرضاعة : امنعهم الماء إلى الليل فإنهم إن لم يقدروا عليه
 رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم ، امنعهم الماء منعهم الله إياه يوم
 القيامة .

فقال صعصعة : « إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شرية
 الخمر » . فهاج عليه أنصار معاوية ، فقال لهم : كفوا عن الرجل
 فإنه رسول ، فقال صعصعة لمعاوية : هل لك أن ترد على ؟ قال :
 سيأتيكم رأيي . فوالله ما راعنا إلا تسوية الرجال والخيل والصفوف ،
 فأرسل إلى أبي الأعور : امنعهم الماء . وقال السليل ابن عمرو مخاطب
 معاوية :

امنع الماء من صحاب على أن يذوقوه والذليل ذليل

واقتل القوم مثلما قتل الش يخ ظماً والقصاص أمر جميل
فامنع القوم ماءكم ليس للقو م بقاء وإن يكن فقليل
وفرّج أهل الشام بالغلبة على الماء ، فقال معاوية : يأهل الشام
هذا والله أول الظفر ، لا سقاني الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه
أبدأ حتى يقتلوا بأجمعهم عليه . وتباشر أهل الشام ، فقام إلى معاوية
رجل من أهل الشام يقال له المعري الهمداني - وكان ناسكاً وكان له
لسان ، وكان صديقاً ومؤاخياً لعمر بن العاص - فقال : يا معاوية ،
سبحان الله أن سبقتم القوم إلى الفرات فغلبتموهم عليه تمنعونهم عنه ،
أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه ، أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة
والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ! هذا والله أول الجور . لقد شجعت
الجبان ، وبصرت المرتاب ، وحملت من لا يريد قتالك على كنفيك .
فأغلظ له معاوية وقال لعمر بن العاص : أكنفى صديقك . فأناه عمرو فأغلظ
له ، فقال الهمداني في ذلك :

لعمر أبي معاوية بن حرب	وعمر بن ما لدائها دواء
سوى طعن يحار العقل فيه	وضرب حين تختلط الدماء
فلست بتابع دين ابن هند	طوال الدهر ما أرسى حراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب	وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقولي في حوادث كل أمر	على عمرو وصاحبه العفاء
ألا لله درك يابن هند	لقد ذهب الحياء فلا حياء

أتحمون الفرات على رجال وفي أيديهم الأسل الظماء
 وفي الأعناق أسياف حداد كأن القوم عندهم نساء
 فترجو أن يجاوركم على بلا ماء والأحزاب ماء
 وتوجه الأشعث إلى الإمام على وقال : يا أمير المؤمنين ، أئمننا
 القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف ، نخل عنا وعن القوم ،
 فوالله لا نرجع حتى زرده أو نموت . وزادى الأشتر في الناس من كان
 يريد الموت أو الماء فيعاده الصبح فإني ناهض إلى الماء ، فأتاه من
 ليكته اثنا عشر ألف رجل ، وشد عليه سلاحه وهو يقول :

ميعادنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح
 لا لا ولا أمر بغير نصيح دبوا إلى القوم بطعن سمح
 لا صلح للقوم وأين صلحي حسبي من الإقحام قابروح

وطلب الأشعث من الجنود أن يقتحموا الخيل ، فاقتحموها حتى
 وضعت سنايبكها في الفرات ، وأخذت القوم السيوف فولوا مدبرين ،
 فقتال الإمام هذا يوم نصرنا فيه الأشعث بالحمية ، وقال الأشعث :
 يا أمير المؤمنين ، قد غلب الله لك على الماء .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : ما أظنك بالقوم إن منعوك الماء
 اليوم كما منعهم أمس ! أترك ضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ،
 وما أغنى عنك أن تكشف لهم السوأة .

قال : دع عنك ما مضى . ما ظنك بعلي ؟ قال ظني أنه لا يستحل

منك ما استحلتت منه ، وأن الذي جاء له غير الماء . فلما غلب على
 على الماء ، فطرد عنه أهل الشام ، بعث إلى معاوية : إنا لا نكافيك
 بصنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء ، فأخذ كل منهما بالشرعة
 مما يليه . وقال على لأصحابه إن الخطب أعظم من منع الماء . وقال
 معاوية : لله در عمرو ما عصيته في أمر إلا أخطأت الرأي فيه .

الإمام يرسل معاوية بصفتين

ودعا الإمام رضى الله عنه بشير بن عمرو الأنصارى وسعيد
 ابن قيس الهمداني وشيث بن ربيع التميمي : وقال لهم : اتوا هذا الرجل
 فادعوه إلى الله عز وجل وإلى الطاعة والجماعة وإلى اتباع أمر الله تعالى .
 فقال له شيث : ألا تظمعه في سلطان توليه إياه ومنزلة تكون له بها
 أثره عندك إن هو بايعك ؟

قال على : اتوه الآن فالتوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه .

وتوجه رسل الإمام إلى معاوية — وقال له بشير بن عمرو : يا معاوية
 إن الدنيا عنك زائلة ، وإن الله مجازيك بعملك ، وإني أنشدك الله
 أن تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها بينها . . .

فقطع معاوية عليه الكلام فقال : هلا أوصيت بذلك صاحبك !
 فقال عمرو الأنصارى : سبحان الله ! إن صاحبي ليس مثلك ،

إن صاحبي أحق البرية بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام
والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال معاوية : فيقول ماذا ؟

قال : أدعوك إلى تقوى ربك ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك
إليه من الحق ، فإنه أسلم لك في دينك ، وخير لك في عاقبة أمرك .
قال معاوية : ويظل دم عثمان ، لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً .

وقال شعث بن ربیع : يا معاوية ، إنه لا يخفى علينا ما تقرب
وما تطلب ، إنك لا تجد شيئاً تستهوى به الناس إلا أن قلت لهم قتل
إمامكم مظلوماً فهلما نطلب بدمه ، فاستجاب لك سفهاء رذال ،
وقد علمنا أنك أبطأت عليه بالنصر وأحببت له القتل لهذه الميزة التي
تطلب . ورب مبتغ أمراً يحول الله دونه ، وربما أوقى المتمنى أمنيته
وربما لم يؤتمها ، والله ما لك في واحدة منهما خير ، والله إن أخطأك
ما ترجو إنك لشر العرب حالاً ، ولئن أصبت ما تمناه لا تصيبه
حتى تسحق صلا النار ، فاتق الله يا معاوية ولا تنازع الأمر أهله .

معاوية : إني أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا
الحسيب الشريف سيد قومه منطقته ، ثم عتبت بعد فيما لا علم لك
به ، ولتقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الخافي في كل ما وصفت
وذكرت . انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلا السيف .

واستمرت المراسلة بين الإمام علي ومعاوية ثلاثة أشهر ، وليس

عند معاوية شيء يقوله للإمام سوى مقتل عثمان وأن الإمام قتل عثمان ويطلب تسليم قتلته وقيل إن المراسلة بينهما استمرت خمساً وثمانين مرة في ثلاثة أشهر إلى أن دخل أبو أمامة الباهلي وأبو الدرداء على معاوية فقالا : علام تقاتل هذا الرجل ؟ ! فوالله هو أقدم منك ، وأحق بهذا الأمر منك ، وأقرب من النبي صلى الله عليه وسلم ، فعلام تقاتله ؟ فكان جوابه كالعادة : أقاتله على دم عثمان وأنه أوى قتلته ، فقولا له فليقدنا من قتلته وأنا أول من بايعه ، فانطلقا إلى علي فأخبراه فقال : هم الذين ترون ، فخرج عشرون ألفاً أو أكثر مسربلين في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق فقالوا : كلنا قتلته ، فإن شاءوا فليروا ذلك منا ، فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال ، حتى إذا كان شهر رجب وخاف معاوية أن يبائع الناس علياً على القتال أخذ في المكر وأخذ يحتال .

على أنه بمجرد أن انسلخ شهر المحرم واستقبل صفر سنة ٣٧ بعث على نفر من أصحابه حتى إذا كانوا في عسكر معاوية نادى مرثد ابن الحارث الجشمي : يا أهل الشام ، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون لكم إنا والله ما كففنا عنكم شكاً في أمركم ولا بغياً عليكم ، وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم ثم انسلخ ، وإنا قد نبذنا إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . (وفي رواية) أمره فنادى . يا أهل الشام ، ألا إن أمير المؤمنين يقول

لكم : إني قد استبذتكم واستأنيتكم لتراجعوا الحق وتنبهوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه فلم تتناهاوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق ، وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

فثار الناس إلى أمراءهم ورؤسائهم ، وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتبان الكتاب وأوقدوا النيران وجاءوا بالشموع ، وبات الإمام أيلته كلها يعي الناس ويكتب الكتاب ويدور في الناس ويحرضهم .

وكان الإمام يأمر عساکه في كل موطن لقوا معه عدوه فيقول : لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم فإنكم بحمد الله على سبب ترككم إمام حتى يبدءوكم ، وإذا قاتلتهم فهزمتهم فلا تقتلوا مذبذباً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمشوا بقتيل ، فإذا وصلتكم إلى رجال القوم فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذني ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة إلا بإذني ، وإن شتمن أعراضكم وتناولن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول ، ولقد كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة فيعير بها عقبه من بعده .

وسمع من الإمام على رضي الله عنه أيام الحمل وصفين والنهروان أنه كان يقول للناس : عباد الله ، اتقوا الله عز وجل وغضوا الأبصار واخفضوا الأصوات وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة

والمبارزة والمعانقة والمكادمة ، واثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . اللهم ائهمهم الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، وأعظم لهم الأجر .

القتال

في يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتداء القتال العنيف فخرج من أهل الكوفة الأشتر وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة ، فاقتلوا قتالا شديداً جل النهار ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض ، ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجالة حسن عددها وعدتها ، وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي فاقتلوا يومهم ذلك تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال ثم انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض ، وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر وخرج عمرو بن العاص فاقتل الناس كأشد القتال وجعل عمار يقول : يا أهل الإسلام ، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدكما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين ، فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم . وهو والله فيما يرى راهب غير راغب ، وقبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم وإنا والله لتعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم ، ألا وإنه معاوية . وكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل ، فأمره أن يحمل في الخيل فحمل ، وصبروا له ، وشد عمار فأزل عمرو

ابن العاص عن موقفه ، وبارز زياد بن النضر أخاً من أمه من نبي عامر وهو معاوية بن عمرو العجلي ، وخرج محمد بن علي بن أبي طالب وخرج إليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمعين عظيمين ، فاقتتلوا كأشد القتال ، ثم إن عبيد الله بن عمر أرسل إلى محمد بن الحنفية أن اخرج إلى أبارذك ، قال له : نعم ، ثم خرج إليه يمشي ، فبصر به علي ، فقال : من هذان المتبارزان ؟ فقيل له : ابن الحنفية وابن عمر ، فحرك علي دابته ثم دعا محمداً فوقف له وقال : أمسك دابتي ، فأمسكها ثم مشى إليه علي فقال : أنا أبارذك ، قال ليس لي في مبارزتك حاجة ، وأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه : منعتني من مبارزته ، فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله ، قال : يا بني لو بارزته أنا لقتلته ، ولو بارزته أنت لرجوت من أخذ بها لحتي ومن تركها مرق ومن فارقها محق . نحن أهل بيت الرحمة وقولنا الصلح ومن فعالنا القصد ، ومنا خاتم النبيين وفينا قادة الإسلام ومنا قراء الكتاب ، ندعوكم إلى الله وإلى رسوله وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره وابتغاء رضوانه ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان وتوقير النبي لأهله ، ألا وإن من أعجب العجب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السهمي أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين يزعمهما ، وقد علمتم أني لم أخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، ولم أعصه في أمر قط ، أقيه بندي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال وترعد فيها الفرائص

نجدة أكرمني الله بها فله الحمد ، ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لنى حجرى ولقد وليت غسله بىدى وحدى تقلبه الملائكة المقربون معى ، وإيم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيا إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله .

وفى ليلة الأربعاء قال الإمام فى خطبة أخرى : ألا إنكم ملائكة العدو غدأ إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، وأسألوا الله الصبر والنصر ، والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين .

ثم انصرف ووثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم يصلحونها ، ولما كان الليل بعث الإمام منادياً فنادى : يا أهل العراق ، اغدوا على مصافكم نصيح أهل الشام فى عسكرهم ؟ وناذى معاوية : أين الجند المقدم ؟ فخرج أهل حمص فى راياتهم عليهم أبو الأعور السلمى ، ثم نودى : أين أهل الأردن ؟ فخرجوا فى راياتهم عليهم سفيان بن عمرو السلمى ، وفى اليوم الخامس خرج عبد الله بن العباس والوليد بن عقبة فاقتلوا قتالا شديداً ، ودنا ابن عباس من الوليد فأخذ الوليد يسب بنى عبدالمطلب ، فأرسل إليه ابن عباس أن ابرز إلى فأبى ، وقاتل ابن عباس يومئذ قتالا شديداً ، ثم انصرفوا ، ثم خرج شمر بن أبرهة بن الصباح الحميرى فى ذلك اليوم فلحق بعلى ، ومعه وفد من أهل الشام ، فلما رأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص وما خرج إلى الإمام من قبائل أهل الشام فت ذلك فى عضد معاوية وعمرو ، وقال الأخير : يا معاوية ، إنك

تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلا له من محمد صلى الله عليه وسلم قرابة قريبة ورحم ماسة وقدم في الإسلام لا يعتد أحد بمثلها ، ونجدة في الحرب لم تكن لأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ إنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين وفرسانهم وقرائهم وأشرفهم ، وقد ما بهم في الإسلام ولهم في النفوس مهابة ، ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل . وعندما سمع معاوية ذلك حاول أن يخاطب في أهل الشام ، وكذلك حاول عمرو بن العاص بعده .

وعندما علم الإمام بما قاله معاوية وعمرو بات ليلته كلها يعنى الناس حتى إذا أصبح زحف بالناس . وخرج إليه معاوية وأهل الشام ، وتقابل القوم ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وانصرفوا عند المساء ، وكل غير غالب ، وأخذ الإمام يحرض أصحابه ويوصيهم وصايا مهمة في الحرب فقال : « إن الله قد دلکم على تجارة تنجيکم من العذاب : إيمان بالله ورسوله وجهاد في سبيله ، وجعل ثوابه مغفرة الذنوب ، ومساکن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ، وأخبرکم بالذي يجب فقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . فسوا صفاً وفكم كالبنیان المرصوص ، وقدموا المدرع ، وأخروا الحاسر ، وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، وأميتوا الأصوات فإنه أطرده للفشل وأولى بالوقار ، والتوا في أطراف الرماح فإنه أمرر للأسته ، وراياتكم فلا تيمأوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا في أيدي شجعانكم المانعي

الذمار ، وإيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بعد الصبر ينزل النصر» .

وطلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يسوي صفوف أهل الشام ، فقال له عمرو : على أن لي حكماً إن قتل الله ابن أبي طالب واستوسقت لك البلاد .

فقال معاوية : أليس حكمك في مصر ؟

قال عمرو : وهل مصر تكون عوضاً عن الجنة وقتل ابن أبي طالب

ثمناً لعذاب النار ؟

معاوية : إن لك حكمك أبا عبد الله إن قتل ابن أبي طالب .

رويدياً لا يسمع أهل الشام كلامك .

فقال عمرو موجهاً الكلام لأهل الشام : «سوا صفوفكم ، وأعيروا

ربكم جماجمكم ، وجاهدوا عدو الله وعدوكم ، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم ، واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين» .

ولم يكتف معاوية بذلك بل لجأ إلى «ذى الكلاع» وطلب منه

أن يعرض الناس على قتال الإمام ، وكان من أخطر أصحاب معاوية

ف فعل وكان مما قاله : كان مما قضى الله أن ضم بيننا وبين أهل ديننا

صفين ، وإنا لنعلم أن فيهم قوماً كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم سابقة ذات شأن . وخطر عظيم ، ولكنني ضربت الأمر ظهراً

وبطناً فلم يسعني أن يهدر دم عثمان . . .

وأقيل ذو الكلاع في حمير ومن لف لفها ومعه عبيد الله بن عمر ابن الخطاب في أربعة آلاف من قراء أهل الشام ، قد بايعوا على الموت وهي ميمنة أهل الشام وعليها ذو الكلاع ، فحملوا على ربيعة وهي ميسرة أهل العراق وعليها عبد الله بن العباس حملة شديدة ، فتضعفت رايات ربيعة ، وانصرف أهل الشام فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى كروا وعبيد الله بن عمر يقول :

يأهل الشام هذا الحى من أهل العراق قتلة ابن عفان وأنصار على ، وقد أدركتم ثأركم في عثمان وهلك على وأهل العراق ، فشدوا على الناس شدة شديدة ، فثبت لهم ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلا قليلاً من الضعفاء وثبت أهل الرايات وأهل البصائر منهم والحفاظ وقاتلوا قتالاً شديداً ، حتى إذا كان يوم الخميس التاسع من صفر سنة ٣٧ خطب الناس معاوية وحرّضهم وكان مما قاله : يأهل الشام تلقون غداً أهل العراق فكونوا على إحدى ثلاث أحوال ، إما أن تكونوا قوماً طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا في بيضتكم ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتمكم وصهر نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن نسايتكم وأبنائكم .

عمار بن ياسر وعمرو بن العاص

وفكر ذو الكلاع في أن يجمع بين عمرو وعمار بن ياسر عندما سمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يلتقي أهل الشام وأهل العراق وفي إحدى الكنيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار بن ياسر » .

واجتمع فعلا ذو الكلاع ومعه أبو نوح الكلاعي مع عمرو بن العاص عند معاوية ، وقال ذو الكلاع لعمرو : هل لك في رجل ناصح يخبرك عن عمار بن ياسر لا يكذبك ، قال من هو ؟

قال : ابن عمي هذا وهو من أهل الكوفة .

فقال له : إني لأرى عليك سياء أبي تراب .

فقال أبو نوح : على سياء محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وعليك سياء أبي جهل وفرعون .

وقال عمرو : أفينكم عمار بن ياسر ؟

قال نوح : ما أنا بمخبرك عنه حتى تخبرني لم تسألني عنه ، فإن معنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة غيره وكلهم جادّ على قتالكم .

عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن عماراً تقتله الفئة الباغية ، وأنه ليس ينبغي لعمار أن يفارق الحق ، ولن تأكل النار منه شيئاً .

قال أبو نوح : لا إله إلا الله والله أكبر . والله إنه لفينا جاد على قتالكم .

عمرو : والله إنه لجاد على قتالنا ؟

أبو نوح : نعم والله الذى لا إله إلا هو . لقد حدثنى يوم الجمل أنا سنظهر عليهم ، وحدثنى أمس أن لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق وأنتم على باطل ، وكانت قتالنا فى الجنة وقتلاككم فى النار .

عمرو : هل تستطيع أن تجمع بينى وبينه ؟

أبو نوح : نعم .

وجمع بينهما

وقال عمرو موجها الحديث إلى عمار بن ياسر إني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم . أذكرك الله إلا حقت دماءهم فعلام نقاتلنا ؟ !

عمار : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقاتل الناكثين وقد فعلت ، وأمرنى أن أقاتل القاسطين فأنتم هم ، وأما المارقون فما أدرى أأدرکہم أم لا أيها الأبتى . أأست تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى : من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأنا مولى الله ورسوله وعلى بعده .

عمرو : لم تشتمنى يا أبا اليقظان وأست أشتمك ؟

عمار : وبم تشتمنى ؟ أتستطيع أن تقول إني عصيت الله ورسوله يوماً قط ؟ !

عمرو : إن فيك أسباب سوى ذلك .

عمار : إن الكريم من أكرمه الله ، كنت وضعياً فرفعني الله ،
ومملوكاً فأعتقني الله ، وضعيفاً فقوانى الله ، وفقيراً فأغنانى الله ،

عمرو : ما ترى في قتل عثمان ؟

عمار : فتح لكم باب كل سوء .

واشتمد الحواري بينهما ، فقام أهل الشام وركبوا خيولهم ورجعوا ،
فبلغ معاوية ما كان بينهم ، فقال هلكت العرب إذا أخذتهم خفة
العبد الأسود (يعنى عمار بن ياسر) ، ومشى عبد الله بن سويد إلى ذى
الكلاع فقال له : لم جمعت بين الرجلين ؟ قال لحديث سمعته من
عمرو ، وذكر أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول
لعمار بن ياسر : « تقتلك الفشة الباغية » .

اشد والقتال والمبارزة

اشد القتال بين الفريقين . وكانت الغلبة لأهل العراق حتى بدأ اليأس يدب في نفس معاوية ، فقال لعمر بن العاص أما ترى يا أبا عبد الله إلى ما قد وقعنا فيه ؟ كيف ترى أهل العراق غداً صانعين ؟ إذا لني خطر عظيم ، وخرج معاوية فاراً لائذاً إلى بعض مضارب العسكر فدخل فيه ، وبعث معاوية إلى خالد بن العمر إنك قد ظفرت ولك إمرة خراسان إن لم تتم . فطمع خالد في ذلك ولم يتم فأمره معاوية حين بايعه الناس على خراسان فمات قبل أن يصل إليها .

وبرز رجل من حمير اسمه كريب بن الصباح ليس في أهل الشام يومئذ رجل أشهر شدة بالبأس منه ، ثم نادى : من يبارز ؟ فبرز إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدي فقتل المرتفع ، ثم نادى : من يبارز ؟ فبرز إليه الحارث بن الجلاح فقتله ، ثم نادى : من يبارز ؟ فبرز إليه عايد بن مسروق الهمداني فقتل عايداً ، ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض ، ونادى : هل بقي من يبارز ، فبدر إليه على عليه السلام ، ثم ناداه : ويحك يا كريب إني أحذرك وأدعوك إلى سنة الله ورسوله . ويحك لا يدخلنك ابن آكلة الأكباد ، وكان جوابه : « ما أكثر

ما سمعت هذا الكلام منك ! فلا حاجة لنا فيه ، أقدم إذا شئت ، من يشتري سيفي وهذا أثره» . فقال على عليه السلام : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، ثم مشى إليه فلم يمهل أن ضربه ضربة خر منها قتيلاً ، ثم نادى : من يبارز . فبرز إليه الحارث بن وداعة والمطاع بن المطلب فقتلتهما ، وبعد ذلك نادى الإمام : « يا معشر المسلمين (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) » . ثم قال موجهاً الكلام إلى معاوية : « ويحك يا معاوية . هلم فبارزني ، ولا يقتلن الناس فيما بيننا » . فقال عمرو : « اغتنمه منتهزاً فقد قتل ثلاثة من أبطال العرب ، وإني أطمع أن يظفرك الله به » . فقال له معاوية : ويحك يا عمرو ! والله إن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدى ، اذهب . إليك عنى . فليس مثلى يخدع .

وطلب عمرو بن العاص من قومه أن يجردوا في القتال .

وقام عبد الله بن العباس خطيباً ، وقال فيما قال : إن اضطراب هذه الأمة سببه أن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام أعواناً على علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره ، وأول ذكر صلى معه ، وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشاهدته ، على حين كان معاوية وأبو سفيان مشركين يعبدان

الأصنام ، لقد قاتل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإمام يقول : « صدق الله ورسوله » ، معاوية وأبو سفيان يقولان كذب الله ورسوله ، فما معاوية في هذه بأبر ولا أنتى ولا أرشد ولا أصوب منه في تلکم ، والله إنکم لعلی الحق ، وإن القوم لعلی الباطل فلا يكونوا أولی بالحد في باطلهم منكم في حقتكم أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر وقال : « امضوا يا عباد الله إلى قوم يطلبون فيا يزعمون بدم عثمان ، والله ما أظنهم يطلبون دمه ، وأكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرهوها ، وعلموا لو أن الحق لزمهم لحال بينهم وبين ما يرغبون فيه منها ، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها الطاعة والولاية ، فخذعوا أتباعهم بأن قالوا : قتل إمامنا مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبايرة وملوكاً ، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون ، ولولا هي ما بايعهم من الناس رجلاً .

ومضى عمار— ومضى معه أصحابه ، فلما دنا من عمرو بن العاص قال : يا عمرو ، بعث دينك بمصر ا تبتاً لك ؛ وطالما بغيت الإسلام عوجاً .

وجعل عمار يقاتل ويقول صبراً عباد الله . وكان لواء أهل الشام

مع أبي الأعور السلمى ، ولم يزل عمار ينخسه حتى شب القتال واقتتل الناس قتالاً شديداً لم يسمع بمثله ، وكثرت القتل ، وكان على عمار يوم هذه الواقعة درع وهو يقول : أيها الناس الرواح إلى الجنة . وقال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص : والله إن هذه الراية قد قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن ثم قال :

نحن ضربناكم على تنزيله فالיום نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقلبه ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم استسقى عمار ، وقد اشتد ظمؤه وحين شرب قال : « الجنة تحت الأستة . اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه » . ثم حمل عليه ابن جون السكسكى وقتله .

ولا بد هنا من وقفة لكي نستمع إلى ما قاله أستاذنا الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى عن عمار بن ياسر ، قال : « لم يجئ أحد بعمار إلى صفين ، لم يستكرهه على الحرب ولا على الخروج معه ، وإنما كان عمار شيخاً نيف على التسعين ، شاخ جسمه ، ولكن قلبه وعقله وبصيرته ظلت بمأمن من الشيخوخة ، فكان شاباً الحديث ، وكان شاب المناظرة ، وكان شاب الجهاد ، وهو الذى سلم على عائشة بعد وقعة الجمل ، ثم قال لها : كيف رأيت ضرابنا يا أمه ! قالت : لست لك بأم ، ولست لى يابن . قال متضحكاً : بل أنت أمى وأنا الإلم على

ابنك وإن كرهت . يريد أن القرآن قد نزل بأن أزواج النبي أمهات المؤمنين - فلن تستطيع عائشة أن تغير ما نزل به القرآن . وكان عمار أشد أصحاب علي تحريصاً على الحرب ، وكان يقول لأصحابه حين رأى بعض انكشافهم : والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل .

وفي قتل عمار يقول الدكتور طه أيضاً : « ما زال قتله من الأحاديث المأثورة بين المسلمين ، فهو ابن أول شهيدين في الإسلام . فتن أبو جهل أباه ياسراً وأمه سمية حتى قتلها ، كما هو معروف ، وهو الذي قال له النبي : ويحك يا بن سُمَيَّة ! تقتلك الفئة الباغية ، وقد أشفق الزبير من حرب علي حين عرف أن عماراً معه ، وكان خزيمة بن ثابت الأنصاري يتبع علياً في صفين ، ولكنه لا يقاتل وإنما يتحرى أمر عمار ، فلما عرف أنه قد قتل قال : الآن استبانن الضلالة ، ثم قاتل حتى قتل . رأى أن أهل الشام قد قتلوا عماراً ، فعرف أنهم الفئة الباغية التي ذكرها النبي في حديثه ذلك .

ووقع قتل عمار من معاوية وأصحابه وقعاً أليماً مروعاً لم يشكوا في أن النبي قال له : تقتلك الفئة الباغية ، وإنما حاولوا أن يخفوا علمهم بهذا الحديث ، فلما لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً تألوه ، وقال معاوية : أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به !

وبعد ذلك كانت وقعة مشهورة بوقعة الخميس ، وهي التي قتل فيها أعلام العرب . ويروى أن الإمام علياً رضي الله عنه نادى : يا معاوية - يكررها - فقال معاوية : اسألوه ما شأنه ؟ قال : أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة ، فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص ، وقال لمعاوية متجاهلاً عمراً : « ويحك علام يقتل الناس بني وبينك ؟ ابرز إلى فأبنا قتل صاحبه فالأمر له . فالتفت معاوية إلى عمرو ، فقال : ما ترى يا أبا عبد الله ؟ أبارزه ، فقال عمرو : لقد أنصفك الرجل ، وأعلم أنك إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقي عربى .

فقال معاوية : يا عمرو ليس مثلى يجذع عن نفسه . والله ما بارز ابن أبى طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه .

ثم انصرف معاوية راجعاً إلى آخر الصفوف وعمرو معه ، وقال معاوية ويحك يا عمرو ! ما أحمقك وحقدتها معاوية على عمرو ، وقال : ما أظنك يا عمرو إلا مازحاً : فلما جلس معاوية مجلسه أقبل عمرو حتى جلس ، فقال معاوية :

يا عمرو إنك قد قشرت لي العصا	برضاك في وسط العجاج برازى
ولقد أعدت فقلت مزحة مازح	والمزح يحمله مقال الهازى
فإذا الذى منتك نفسك خالياً	قتلى جزاك بما نويت الجازى

فرد عليه عمرو قاتلاً :

معاوى إن نكلت عن البراز لك الولايات فانظر في المخازى
وما ذنبي بأن نادى على وكبش القوم يدعى للبراز
قلو بارزته بارزت ليثاً حديد الناب ينفذ كل بازى
وتزعم أنى أضمرت غشاً جزانى بالذى أضمرت جازى
أضيع في العجاجة يا بن هند وعند الباه كالتيس الحجازى

على أنه كان من رأى أبرهة بن الصباح بن أبرهة الحميرى أن يبارز
معاوية علياً ، ولكن معاوية رفض وكره مبارزة على فقال أبرهة في ذلك :

لقد قال ابن أبرهة مقالا وخالفه معاوية بن حرب
وكم بين المنادى من بعيد ومن يفتشى الحروب بكل غضب
أيهجرنى معاوية بن حرب وما هجرانه سخطاً لربى
وعمرى إن يفارقنى بدينى لنى سعة إلى شرق وغرب

وبرز يومئذ عروة بن داود الدمشقى فقال : إن كان معاوية كره
مبارزتك يا أبا الحسن فهلم إلى ، فتقدم إليه على ، فقال له أصحابه :
ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بخطر ، فقال : والله ما معاوية اليوم
بأغيظ لى منه ، ثم حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين سقطت إحداهما
يمنة والأخرى يسرة وارتج العسكران حول الضربة ، ثم قال يا عروة اذهب
فأخبر قومك . أما الذى بعث محمداً بالحق لقد عاينت النار وأصبحت
من النادمين .

وكذلك طلب الوليد بن عقبة من معاوية مبارزته

معاوية يفاوض ابن عباس :

بدأ اليأس يدب في نفس معاوية فقال لعمر بن العاص إن رأس الناس بعد علي هو عبد الله ابن عباس ، فلو ألقيت إليه كتاباً فإنه إن قال شيئاً لم يخرج علي عنه ، وقد أكلتنا الحرب ولا أرانا نصل إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام . فقال له عمرو : إن ابن عباس لا يندفع ، ولو طمعت فيه لطمعت في علي ، وأصر معاوية على الكتابة إلى ابن عباس ، فكتب إليه عمرو يقول : « أما بعد فإن الذي نخزن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وأنت رأس هذا الجمع بعد علي ، فانظر فيما بقي ودع ما مضى ، فو الله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياً ولا صبراً ، واعلموا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق وأن العراق لا تملك إلا بهلاك الشام ، وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ، وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ، ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكننا نقول ليتها لم تكن ، وإن فينا من يكره القتال كما أن فيكم من يكرهه ، وإنما هو أمير مطاع أو مأمور مطيع أو مؤمن مشاور وهو أنت . وختم كتابه بقوله :

طالب البلاء وما يرجى له آسى
يا بن الذي زمرم سقيا الحجيج له
بعد الإله سوى رفق ابن عباس
أعظم بذلك من فخر على الناس

انظر فمدى لك نفسى قبل قاصمة للظهر ليس لها راق ولا آس
 إني أرى الخير في سلم الشام لكم والله يعلم ما بالسلم من باس
 فيها التقي وأمور ليس يجهلها إلا الجهول وما النوكى كأكياس

فأتى ابن عباس بالكتاب إلى أمير المؤمنين فضحك وقال : قاتل
 الله ابن العاص ! ما أغراه بك يا ابن عباس ، أجهه وليرد عليه شعره
 الأفضل ابن العباس فإنه شاعر ، فكتب ابن عباس إلى عمرو :
 « أما بعد ، فإنني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياءً منك . لقد مال
 بك معاوية إلى الهوى وبعته دينك بالتمن اليسير ، ثم خبطت بالناس
 في عشوة طمعاً في الملك فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل
 الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ، فإن كنت ترضى الله بذلك
 فدم مصر وارجع إلى بيتك ، وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلي ،
 ابتدأها على بالحق وانتهى فيها إلى الخدر . وبدأها معاوية بالبغي وانتهى
 فيها إلى السرف ، وليس أهل العراق فيها كأهل الشام . بايع أهل العراق
 عليّاً وهو خير منهم ، وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه ، وليس
 أنا وأنت فيها بسواء ، أردت الله وأردت أنت فإن ترد شراً لا نسبقك
 به وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه . ثم قال لأخيه الفضل يا ابن أم أجب
 عمراً فقال الفضل :

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس فاذهب فليس لداء الجهل من آس
 إلا تواتر طعن في نحوركم يشجى النفوس ويشقى نحوه الراس

هذا الدواء الذي يشفى جماعتكم
 أما على فإن الله فضله
 إن تعقلوا الحرب تعقلها محبة
 قد كان منا ومنكم في عجاجها
 قتلى العراق بقتلى الشام ذاهبة
 لا بارك الله في مصر فقد جلبت
 حتى يطيعوا علياً وابن عباس
 بفضل ذي شرف عال على الناس
 أو تبعوها فإننا غير أنكاس
 مالا يرد وكل عرضة الباس
 هذا بهذا وما بالحق من باس
 شراً وحظك منها حسوة الكاس

وعلق معاوية على كتاب ابن عباس وعلى الشعر بقوله : إن قلب
 ابن عباس وقلب علي قلب واحد وكلاهما ولدا عبد المطلب .

ليلة الحرير وانتهاء المعركة

وتبادل الإمام ومعاوية رسائل كثيرة لم تأت بتسوية إلى أن كان يوم
 الثلاثاء العاشر من ربيع الأول سنة ٣٧ ، وفي ليلة شديدة الحر تراهي
 الفريقان بالنبل حتى فنيت نبالهم ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تقصفت
 وانفقت ، ثم مشى بعضهم إلى بعض بالسيوف - وقد كسروا جفونها -
 وعمد الحديد ، فلم يسمع السامع إلا تغنم القوم وتكادم الأفواه وصليل
 السيوف ووقع الحديد بعضه على بعض ، وكان أشد هولاً في صدور
 الرجال من الصواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً ، وكسفت
 الشمس ، ومرت مواقيت أربع صلوات لم يسجد لله فيها سجدة ،
 ولم يصلوا لله صلاة إلا التكبير ، واستمر القتال من نصف الليل إلى

ارتفاع الضحى وافتروا على سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة ،
وهي ليلة الحرير ، والأشتر في ميسنة الناس ، وابن عباس في الميسرة ،
وعلى في القلب ، والأشتر في هذه الحال يسير فيما بين الميمنة والميسرة
فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها ، فلم يزل
يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره ، ونادت المشيخة في تلك
الغمرات : يا معشر العرب الله الله في الحرمات من النساء . وجعل
الأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام : ازحفوا قيد
رحي هذا ، فإذا فعلوا قال : ازحفوا قاب هذا القوس . فإذا فعلوا
سألهم مثل ذلك حتى مل أكثر الناس الإقدام . وكان الأشتر يقول
لهم : ألا من يشرى نفسه لله ويقاتل مع الأشتر . وقاتل الأشتر أهل
الشام قتالا عنيفاً ، وانتقل الإمام عليه السلام إلى القبلة واتجه إلى الله
سبحانه وتعالى ورفع يديه ثم نادى الله : يا رحمن يا واحد يا صمد
يا الله ، يا إله محمد ، اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ،
ورفعت الأيدي ، وامتدت الأعناق ، وشخصت الأبصار ، وطلبت
الحوائح ، إنا نشكو إليك غيبة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكثرة عدونا ،
وتشتت أهوائنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .
ثم توجه إلى جيشه قائلاً : أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم
ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر
آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما
بلغنا وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم على الله عز وجل .

نتيجة وقعة الحرير وحيلة رفع المصاحف

كانت نتيجة وقعة الحرير أن حاقت الهزيمة بجيش معاوية ، فاستدعى عمرو بن العاص وقال له : يا عمرو ، إنما هي الليلة حتى يغدو على علينا بالقيصل ، فما ترى ؟ قال : « أرى أن رجالك لا يقومون لرجاله ، ولست مثله ، هو يقاتلك على أمر ، وأنت تقاتله على غيره ، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون علينا إن ظفر بهم ، ولكن ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا ، وإن رده اختلفوا ، ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم ، فإنك بالغ به حاجتك في القوم ، فإنني لم أزل أؤخر هذا الأمر لحاجتك إليه » .

فقال معاوية : صدقت .

وأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح ، وأخذوا ينادون بأهل العراق ، كتاب الله بيننا وبينكم .

اختلاف أصحاب الإمام

في هذا الموقف قال الإمام على عليه السلام : « اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكيم الحق المبين » .

وكان أصحاب الإمام أربع طوائف :

١- أهل البصرة المخلصون له في الظاهر والباطن ، العارفون بحقه ، العالمون بأنها خدعة ، وهم القليل أمثال الأشتر وحجر بن عدى والحسين ابن المنذر .

٢- المخلصون له بقلوبهم ، لكنهم خدعوا ، أو أحبوا البقاء ، أمثال حريث بن جابر ورفاعة بن شداد .

٣- الذين ليس للإمام في قلوبهم مكانته التي يجب أن تكون له ، مضافاً إلى أنهم قد خدعوا ، وهم القراء أهل الجباه السود ، وهؤلاء كانوا وما زالوا في كل عصر أضرم من الفساق المتجاهرين بالفسق .

٤- المنافقون الذين يظهرون النصيحة ويبطنون الغش أمثال الأشعث بن قيس الذي يقول فيه المرحوم الأستاذ عباس العقاد :
« كان الأشعث بن قيس أكبر مادات كدرة وأخلقهم أن ينصر حزباً على حزب لو خلصت نيته ، وبرئت شيمته من القلب والغدر بأصحابه ، طمع هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم . فدعا

قومه أن يتوجه ، وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوَّصروا في حصنه أياماً ويش من الغلبة ، فاستسلم على أن يصاب دمه ودم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن ، فقتل كل من فيه ، ونجا بالعشرة الذين اختارهم إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فقبل توبته ، وزوجه أخته أم فروة ، فلما نشبت الفتنة بين علي ومعاوية كان هو من حارب علي يتطلع للفرصة السانحة .

ويؤيد الدكتور طه حسين رأى العقاد في الأشعث فيقول واصفاً بعض أنصار الإمام : « وأكبر الظن أن بعض الرؤساء من أصحاب علي لم يكونوا يخلصون له نفوسهم ولا قلوبهم ، ولم يكونوا ينصحون له ، لأنهم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين ، وكانوا يندمون في دخائل أنفسهم على تلك الأيام الهينة اللينة التي قضوها أيام عثمان ينعمون بالصلوات والجوائز والإقطاع ، ولست أذكر من هؤلاء إلا الأشعث بن قيس الكندي ذلك الذي أسلم أيام النبي ، ثم ارتد بعد وفاته ، وألب قومه حتى ورطهم في الحرب ، ثم أسلمهم وأسرع إلى المدينة تائباً ، فلم يعصم دمه من أبي بكر فحسب ، ولكنه أصر إليه وتزوج أخته ، ثم نخل في أيام عمر ، وظهر في أيام عثمان ، فتولى له بعض أعماله في فارس ، فلما هم علي أن ينهض إلى الشام عزله عن ولايته ، ويقال إنه طالبه بشيء من مال المسلمين . »

واختلف فعلاً أصحاب الإمام رضي الله عنه وقد بينت آنفاً نموذجاً

فريداً في نوعه ، وهو الأشعث بن قيس ، وسرى حلالاً أنه كان التصير الأزل للتحكيم بل سرى أكثر من ذلك .

وأما من ربعة - وهي الجهة الرئيسية - فقد قام كردوس بن هانيّ البكري فقال : « أيها الناس إنا والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من عليّ منذ توليناه ، وإن قتلتنا لشهداء ، وإن أحيانا لأبرار ، وإن عليّاً لعليّ بينة من ربه ، وما أحدث إلا الإنصاف ، وذلّ محق منصف ، فمن سلم له نجاً ، ومن خالفه هلك » .

وأما شقيق بن ثور البكري فقد قال كلاماً طويلاً سخره بقوله : « وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في الوداعة » .

وأما خالد بن المعمر - فقد قال : « يا أمير المؤمنين ، إنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك إليه القوم إن رأيت ذلك ، فإن لم تره فرأيتك أفضل » .
وقام الحضين بن المنذر الرقاشي فقال : « أيها الناس ، إن لنا داعياً قد حمدنا ورده وصدده ، وهو المصدق على ما قال ، والمأمون على ما فعل ، فإن قال لا قلنا لا ، وإن قال نعم قلنا نعم » .

ماذا قال الإمام

روى أن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب قال عندما رفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى حكم القرآن : « عباد الله ، أنا أحق من أجاب

إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب
ابن مسلمة وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني أعرف
بهم منكم ، صحبتهم أطفالا ، وصحبتهم رجالا ، فكانوا شر أطفال
وشر رجال ، إنها كلمة حق يراد بها باطل ، لأنهم والله ما رفعوها حقاً ،
لأنهم يعرفونها ولا يعملون بها ، وما رفعوها لكم إلا خديعة ومكيدة ،
أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه
ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا .

والذي لا شك فيه أن الإمام رضى الله عنه لم يتخذع برفع المصاحف ،
وكرر قوله : « إن معاوية ليس بصاحب دين ولا قرآن ، وإن معاوية
وأصحابه يكيّدون ويخادعون ويتقرون حر السيف » .

وكان الإمام يرى ألا حكم إلا لله ، وأن السبيل إلى حكم الله هو
القتال حتى يذعن أهل الشام ، ولكن الأغلبية من أصحابه لم تذهب
مذهبه .

وكتب معاوية رسالة إلى الإمام قال فيها : « فويل لك في أمر لنا
ولك فيه حياة وعذر وصلاح للأمة وحقق للدماء وألفة للدين وذهاب
للضغائن والفتن ، أن يحكم بيننا وبينكم حكمان أحدهما من أصحابي
والآخر من أصحابك فيحكمان بما في كتاب الله بيننا » .

اختيار الحكمين

جاء الأشعث بن قيس إلى الإمام رضى الله عنه ، وألح على الإمام في أن يختار على أبا موسى الأشعري وأكره الإمام إكراهاً على قبوله ، واختار معاوية عمرو بن العاص .

وما قاله الإمام في اختيار الأشعري : « إني لا أرضى بأبي موسى ، ولا أرى أن أوليه » ، فقال الأشعث ويزيد بن حصين : نحن لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه ، فقال لهم الإمام : إنه ليس لي برضى ، وقد فارقني ونخذل الناس عني ، ثم هرب حتى أمنتته وبعد أشهر .

ولا يستبعد الدكتور طه حسين أن يكون الأشعث بن قيس - وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم - قد اتصل بعمر بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم ، ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً ودبروا أن يقتتل القوم ، فإن ظهر أهل الشام فذاك ، وإن خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفقوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب على ، وجعلوا بأسهم بينهم شديداً ، وقد تم لهم ما دبروا إن كانوا قد دبروا شيئاً واستكره الأشعث ومن أطاعه علياً على كف القتال .

الإمام يرشح ابن عباس

وحاول الإمام ترشيح ابن عباس للتحكيم فقال مخاطباً الأشعث

ابن قيس ومن معه : « هذا ابن عباس أوليه التحكيم » ، فقالوا والله ما نبالي أنت كنت أو ابن عباس ، لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ، فقال الإمام : فإني أجعل الأشتر ، قال الأشعث : « وهل سعر الأرض علينا غير الأشتر ؟ وهل نحن إلا في حكم الأشتر ؟ » . قال : وما حكمه ؟ قالوا : حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد .

وعن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال : لما أراد الناس علياً على أن يضع حكمين قال لهم : إن معاوية لم يكن ليضع أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن عباس . فارموه به فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ولا يحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمراً إلا نقضه ، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه . فقال الأشعث بإصرار : لا والله لا يحكم فيما مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعله رجلاً من أهل اليمن إذا جعلوا رجلاً من مضر .

فقال الإمام عليه السلام : « إني أخاف أن يمدح بمنكم وإن عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هواه » .

وفي إصرار الأشعث على اختيار أبي موسى من الدلالة على عدم إخلاصه للإمام ما فيه ، وليس من المستبعد إطلاقاً أن يكون الأشعث قد اتصل بعمر بن العاص كما سبق أن ذكرنا .

وأخيراً - لما رأى الإمام إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم - قال عليه السلام : قد أبيتُم إلا أبا موسى ؟

قالوا : نعم .

قال : فاصنعوا ما أردتم .

فبعثوا إلى أبي موسى ، وكان معتزلاً بأرض من أرض الشام يقال لها عرض ، فأتاه مولى له ، فقال : إن الناس قد اصطلحوا ، قال : الحمد لله .

قال : وقد جعلوك حكماً .

قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

فجاء أبو موسى حتى دخل عسكر على عليه السلام .

كتاب الصلح

واجتمع المفوضون من الفريقين ، فكتبوا صحيفة هذا نصها كما رواه البلاذري :

« بسم الله الرحمن الرحيم - هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، قاضى علي[ؑ] على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين : أننا نترز عند حكم الله ، وبيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته ، نحبي ما أحيا ، ونميت ما أمات ، فما وجد الحكماء في كتاب الله فإنهما يتبعانه ، وما لم يجداه مما اختلفنا فيه في كتاب الله نصاً أمضيا فيه السنة العادلة الحسنة الجامعة غير المفرقة ، والحكماء عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص - وأخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكمان[ؑ] بما وجدنا في كتاب الله نصاً ، فما لم يجداه في كتاب الله يُسمى عملاً فيه بالسنة الجامعة غير المفرقة ، وأخذنا من علي ومعاوية ومن الجنديين كليهما ، ومن تأمرا عليه من الناس عهد الله ليقبلن ما قضيا به عليهما ، وأخذنا لأنفسهما الذي يرضيان به

من العهد. ومن الثقة بالناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما وأموالهما ،
 وأن الأمة لهما أنصار على ما يقضيان به على على "ومعاوية وعلى المؤمنين
 والمسلمين من الطائفتين كلتيهما ، وأن على عبد الله بن قيس وعمرو
 ابن العاص عهد الله وميثاقه أن يصلحا بين الأمة ولا يردهما إلى فرقة
 ولا حرب ، وأن أجل القضية إلى شهر رمضان ، فإن أحبا أن يعجلها
 دون ذلك عجلا ، وإن أحبا أن يؤخرها عن غير ميل منهما أخرها ،
 وإن مات أحد الحكمين قبل القضاء فإن أمير كل شيعة وشيعته يختارون
 مكانه رجلا لا يألون عن أهل المعدلة والنصيحة والإقساط ، وأن يكون
 مكان قضيتهما التي يقضيانها فيه مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز ،
 لا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، فإن رضيا مكانا غيره فحيث أحبا أن
 يقضيا ، وأن يأخذ الحكمان من كل واحد من شاءا من اليهود ثم
 يكتبوا شهادتهم في هذه الصحيفة أنهم أنصار على من ترك ما فيها: اللهم
 نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً أو ظلماً
 أو حاول له نقضاً .

وشهد بما في الكتاب من أصحاب على : عبد الله بن عباس
 والأشعث بن قيس والأشتر مالك بن الحارث وسعيد بن قيس الهمداني
 والحصين والطفيل ابنا الحارث بن المطلب وأبو أسيد ربيعة بن مالك
 الأنصاري وعوف بن الحارث بن المطلب القرشي وعقبة بن عامر الجهني
 وعمرو بن الحمق الخزاعي والإمام الحسن والإمام الحسين وعبد الله

ابن جعفر الهاشمي والنعمان بن عجلان الأنصاري وحجر بن عدي الكندي وربيعة بن شرحبيل وحجر بن يزيد والحارث بن مالك الهمداني وعقبة بن زياد .

ومن أهل الشام من أصحاب معاوية : حبيب بن مسلمة الفهري وأبو الأعور بن سفيان السلمي وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي وحبيب بن مسلمة وبُسُر بن أرطاة القرشي ومعاوية بن خديج الكندي وحمزة بن مالك الهمداني ويزيد بن الحر الثقفي وعبد الله بن عمرو ابن العاص ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة القرشي وعتبة بن أبي سفيان ومحمد بن عمرو بن العاص ومحمد بن أبي سفيان وحمزة بن مالك ، وغيرهم .

ويرى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أن ليس في كتاب الصلح الموضوع الأصلي الذي اختلفا من أجله فيقول : إن الخطير هو أن الفريقين قد حددا في صحيفتهما كل شيء إلا هذا الموضوع الذي اختلفا فيه ، والذي يجب أن يقضى فيه الحكمان ، فقيم كانا يختلفان بالفعل ؟ كان معاوية يطلب بدم عثمان ، ويريد أن يسلم إليه على قتلته الخليفة المظلوم ، وكان على لا يعرف لعثمان قاتلا بعينه ، ولا يقدر على أن يسلم إلى معاوية جميع من ثاروا بعثمان حتى قتل . أفكان الفريقان يريدان من الحكمين أن يفصلا في هذه القضية ؟ وإذا فما بالهما لم ينصا عليها ، بل لم يذكرها عثمان وقتلته في الصحيفة أصلا ،

وكان معاوية يرى بعد مقتل طلحة والزبير ، وبعد أن استحصد أمره ، واشتد بأسه ، أن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين ، وكان على يرى أنه قد بويح الخلفاء من قبله ، بايعة أهل الحرمين وهم أصحاب الحل والعقد ، وبايعة أهل الأمصار إلا الشام ، فقد اجتمعت له إذاً بيعة الكثرة الكثيرة من المسلمين عامة ، ومن المهاجرين والأنصار خاصة ، ولم يبق لمعاوية إلا أن يدخل فيما دخل فيه الناس ، ويدخل معه أصحابه من أهل الشام ، فإن لم يفعلوا فهم الفئة الباغية التي أمر المسلمون بقتالها إن أبت الصلح ، وكرهت العافية ، حتى تنفيء إلى أمر الله . وإذا فما بال الفريقتين لم ينصا على ذلك في صحيفتهما ، بل لم يذكرنا الخلافة ولا الشورى في الصحيفة أصلاً ؟ ! .

ويرى كثيرون - وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين - أن كتاب الصلح قد أرضى الفريقتين المختصين ، وأن الذين كتبوا هذا الكتاب قد كرهوا الحرب وشموا القتال وتعجلوا السلم ، كذلك كانت نتيجة هذه الصحيفة اختلاف في صفوف أهل العراق وائتلاف في صفوف أهل الشام .

اجتماع الحكمين بدومة الجندل

واجتمع الحكمان بدومة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون وسطاً بين العراق والشام ، وأخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام ، ويقول إنك قد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلي ، وأنت

أكبر مني فنكلم ، وجعل يقدمه في كل شيء ، وهدفه في ذلك أن يبدأ بخلع الإمام ، وقال عمرو بن العاص : أخبرني يا أبا موسى ما رأيك؟ قال : رأي أن أخلع هذين الرجلين علياً ومعاوية ، ثم نجعل هذا الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاءوا . فقال له عمرو : الرأي ما رأيته . فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون . وهنا المسألة الهامة : من يتكلم أولاً ؟ وقد ذكرت أن عمراً كان دائماً يقدم أبا موسى ، وفي روايات كثيرة أن ابن عباس أشفق من خداع عمرو ، فأشار على أبي موسى أن يتأخر حتى إذا تكلم عمرو استطاع هو أن يتكلم بعده ، وقال له : « ويحك ! والله إنى لأظنه قد خدعك ، إن كنا قد اتفقنا على أمر فقدمه قبلك فيتكلم بذلك الأمر قبلك ، ثم تتكلم أنت بعده ، فإن عمراً رجل غدار ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت به في الناس خالفك » .

وكان رد أبي موسى على ابن عباس : « إنا قد اتفقنا » . ولم يستمع إلى رأيه ، إنما قام فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة . ثم قال مخاطباً الجماهير : « أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع علي ومعاوية ، ونستقبل هذا الأمر ، فيكون شورى بين المسلمين ، فيولون أمورهم من أحبوا ، وإنى قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا من رأيتم لها أهلاً » .

ثم تنحى فقعده . وقام عمرو بن العاص مقامه فقال : « إن هذا قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » .

وهنا قال أبو موسى : « مالك ! لا وفقتك الله ! قد غدرت وفجرت ، وإنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

فابتسم عمرو وهو يقول : « إنما مثلك كمثل الحمار يحجل أسفاراً ... »
وهنا أقبل شريح بن هانئ رئيس الوفد من أصحاب علي فقتنع عمرأ بسوطه ، وقام محمد بن عمرو فقتنع شريحأ بسوطه .

وصدق المرحوم الأستاذ العقاد إذ يقول : « كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضيين ، وهما يقضيان على العالم بأمره ليرضى بما قضياه » .

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة !

والتمس أصحاب علي أبا موسى ، فركب ناقته فلحق بمكة ، فكان ابن عباس يقول : قبح الله أبا موسى ! حذرته . . أمرته بالرأى فما عقل . وكان أبو موسى يقول : قد حذرتني ابن عباس غدرة الفاسق ، ولكن اطمأنت إليه وطمنت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة .

بهذا تنهى مهزلة التحكيم التي دبرها عمرو بن العاص ، وشرى دينه

بإمارة مصر التي عزله عنها معاوية في الوقت المناسب ، وولاهها عبد العزيز ابن مروان بن الحكم . ولنستمع إلى ما قال عمرو في كتاب أرسله إلى معاوية :

- معاوية الحال لا تجهل وعن طرق الحق لا تعدل
- خلعت الخلافة من حيدر كمخلع النعال من الأرجل
- وألبسها لك يابن اللثام كلبس الخواتم في الأثمل
- ولو لاى كنت كمثل النساء تعاف الخروج من المنزل
- ولم تك والله من أهلها ورب العباد ولم تكمل
- فأين الحصى من نجوم السماء وأين الحسام من المنجل
- وأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من على
- وأعطيت مصراً لعبد العزيز ولم تعطنى حبة الخردل

الإمام بعد التحكيم

لم يدهش الإمام علي بن أبي طالب لما سمعه عن مهزلة التحكيم ، كأنه كان يتوقعه ، وإنما ذكر تحذيره لأصحابه في صفين حين رفعوا المصاحف فقال لهم : « إن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن » . وقد خطب الإمام بعد أن أتاه أمر الحكيمين فقال : « الحمد لله ، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق المجرب تورث

الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وهذه
الحكومة أمرى ، ونخلت لكم رأى ، لو يطاع لقصير رأى ، ولكنكم
أبيتهم إلا ما أردتم ، فكنت ولإياكم كما قال أخو هوزان

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشدا إلا ضحى الغد
ألا إن الرجلين اللذين اخترتموهما حكيمين قد نبذا حكم الكتاب وراء
ظهورهما ، وارتأيا الرأى من قبل أنفسهما - فأمانا ما أحيا القرآن ،
وأحييا ما أمات القرآن ثم اختانا فى حكمهما ، فكلاهما لا يرشد ولا
يسدد ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين ، فاستعدوا للجهاد ،
وتأهبوا للمسير ، وأصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله .

المأسة الثالثة

الخوارج وواقعة النهروان

من هم الخوارج ؟ هم الذين أنكروا التحكيم الذي وقع يوم صفين ، وقالوا لا حكم إلا لله ، ويقال لهم الحرورية ، نسبة إلى المكان الذي اجتمعوا فيه ، ويقال له حروراء ، ويسمون أنفسهم الشراة ، لأنهم يزعمون أنهم - شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم (١) .

وقد اجتمع الخوارج ، وأبرموا فيما بينهم ميثاقاً : « إن هذين الحكيمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال في دينهم ، ونحن على الشخص من بين أظهرهم ، وقد أصححنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق » .

وروى الطبري أنه لما وقع التحكيم ورجع على من صفين رجعوا مباينين له ، فلما انتهوا إلى النهروان أقاموا به ، ويؤيد ابن الأثير ذلك فيقول أيضاً إنه لما رجع على من صفين فارقه الخوارج ، وأتوا حروراء فتراها ، وكانوا اثني عشر ألفاً ، ونادى مناديبهم عبد الله بن الكواء : الأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهي

(١) قال أحمد - وهو معدان الإيادي :

سلام على من بايع الله شاربياً وليس على الحزب المقيم سلام

عن المنكر ، فقامت الشيعة فقالوا لعلی : فی أعناقنا بیعة ثانية ، نحن أولیاء من والیت وأعداء من عادیت .

فقال الخوارج : استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفری رهان ، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا ، وبايعتم علياً على أنكم أولیاء من والی وأعداء من عادی ، فقال لهم زياد بن النضر : أما والله ما بايعنا علياً إلا على كتاب الله وسنة نبيه ، ولكنكم لما خالفتموه وجاءته شيعته قالوا نحن أولیاء من والیت وأعداء من عادیت ، ونحن كذلك ، وهو على الحق والهدى ، ومن خالفه ضال مضل .

ويقول الطبري أن الإمام علياً بعث إليهم ابن عباس ، فرجع ولم يصنع شيئاً .

وقال المبرد وغيره : لما وجه ابن عباس إليهم لينظرهم قال لهم ما الذي نقتم على أمير المؤمنين ؟ قالوا له : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان ، فليتبع بعد إقراره بالكفر نعدله . فقال ابن عباس : ما ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه بشك أن يقر على نفسه بالكفر . قالوا : إنه حكم — قال : إن الله أمر بالتحكيم في قتل صيد ، قال : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ) ، فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟ فقالوا : إنه حكم عليه فلم يرض ، فقال : إن الحكومة كالإمامة ، ومي فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما ، فقال بعضهم لبعض : جعلوا

احتجاج قريش حجة عليهم ، فهذا من الذين قال الله فيهم : (بَلَّ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ) ، وقال جل شأنه : (وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا) .

قال المبرد ثم ناظرهم أمير المؤمنين بعد مناظرة ابن عباس . ولنقرأ ما دار بين الإمام وعبد الله بن الكواء قائد الخوارج :

الإمام علي : ما الذي نقمتم على بعد رضاكم ولايتي ، وجهادكم معي ، وطاعتكم لي ؟ فهلا برثتم مني يوم الحمل ؟ !
ابن الكواء : لم يكن هناك تحكيم .

الإمام علي : يا بن الكواء ، ويحك ! أنا أهدى أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ابن الكواء : بل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الإمام علي : فما سمعت قول الله عز وجل : (قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ) -
أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون ؟

ابن الكواء : إن ذلك احتجاج عليهم . وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أخرى أن نشك فيك .

الإمام علي : وإن الله تعالى يقول : (فَاتُّوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ) .

ابن الكواء : ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم .

وبعد مناقشة طويلة قال ابن الكواء : « إنك صادق في جميع قولك ، غير أنك كفرت حين حكمت الحكيمين » .

الإمام علي : ويحك يا ابن الكواء ! إني إنما حكمت أبا موسى ، وحكم معاوية عمراً .

ابن الكواء : فإن أبا موسى كان كافراً .

الإمام علي : متى كفر ؟ أحين بعثته أم حين حكم ؟

ابن الكواء : بل حين حكم .

الإمام علي : أفلا ترى أنني إنما بعثته مسلماً فكفر في قولك بعد أن بعثته ؟ أرايت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله فدعاهم إلى غيره — هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟

ابن الكواء : لا .

الإمام علي : ويحك ! فما كان على أن ضل أبو موسى ؟ أفيجبل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعرضوا بها الناس .

وقال لهم الإمام علي : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف

قلت لكم إن هذه مكيدة ، وإنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف
لأنوني ، وسألوني ؛ أف تعلمون أن أحداً كان أكره لكم للتحكيم مني ؟
قالوا : صدقت .

الإمام علي : هل تعلمون أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتمكم
إليه ، فاشترطت أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله ، فتنى خالفاه
فأنا وأنتم من ذلك براء ، وأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدوني .

قالوا : اللهم نعم . حكمت في دين الله برأينا ، ونحن مقرون
بأنا كفرنا ، ولكننا الآن تائبون فأقر بما أقرنا به وتب نهض معك
الشام .

الإمام علي : أما تعلمون أن الله قد أمر بالتحكيم في شقاق بين
الرجل وامرأته ، فقال سبحانه وتعالى : (فَاتَّبِعُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ
وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِيهَا) .

ولم تشر المناقشة التي كان يرجوها الإمام بل تأثر .

ومن شعره الذي قاله وكان يردده لما ساموه أن يقر بالكفر ويتوب
حتى يسيروا معه إلى الشام أنه قال : أبعد صحبة رسول الله صلى الله
عليه وسلم والتفقه في الدين أرجع كافراً ، ثم أنشد :

يا شاهد الله على فاشهد أني على دين النبي أحمد

من شك في الله فإني مهتدي

ويقول ابن أبي الحديد : كل فساد في خلافة عليّ أصله الأشعث ، ولولا تصرفه مع الإمام ما كانت حرب النهروان ، فقد حدث أن الإمام عليّاً خرج إلى الخوارج في حروراء وناشدهم فاستجابوا ، فقالوا إنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم ، وقد تبنا فتب إلى الله كما تبنا نعد معك . فقال الإمام أنا أستغفر الله من كل ذنب . فرجعوا معه وهم ستة آلاف ، فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليّاً رجع عن التحكيم ورآه ضلالاً ، فأنى الأشعث عليّاً فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفرأ . فقام على يخطب الناس فقال :

من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالاً فقد ضل . ومن هذا يتبين أن الإمام أراد أن يسلك مع الخوارج مسلك التعريض ، فقال لهم كلمة مجملة يقوها الأنبياء والمعصومون فرضوا بها . فأبلجأه الأشعث إلى التصريح حيث سأله بحضور من لا يمكنه معه إلا التصريح فانتقض ما دبره .

ويقول الطبرى : لما وصل الإمام على إلى النهر بعث إليهم : ادفخوا لنا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم . ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى أتى أهل الشام ، ففعل الله يردكم إلى خير مما أنتم عليه . فقالوا كلنا قتلتهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم ، وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة

فوعظهم ، واحتج عليهم ، وقال لهم : ركبتم عظيمًا من الأمر ، تشهدون علينا بالشرك ، وتنفكون دماء المسلمين . فلم ينجح ذلك فيهم ، وخطبهم أبو أيوب الأنصاري فقال : إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنا عليها ، فعلام تقاتلوننا ؟ فقالوا : إنا لو تابعناكم اليوم حكمتم غدًا ، قال : فإني أُنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابل . وقال لهم الإمام على : أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المراء واللجاجة وصددها عن الحق الهوى ، ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم مكيدة ، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنى أعرف بهم منكم ، عرفهم أطفالا ورجالا ، وهم أهل المكر والغدر ، وأنكم إن فارقتم رأى جانبتهم الحزم ، فعصيتموني ، حتى إذا أقررت بأن حكمت ، فلما فعلت شرطت واستوثقت ، فأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات ، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة . فنبذنا أمرهما ، ونحن على أمرنا الأول ، فما الذى بكم ؟ ومن أين أنيتم ؟ قالوا : إنا حكمنا ، فلما حكمنا أئمتنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا ، فإن تبنا كما تبنا فنحن منك ومعك ، وإن أبيت فاعتزلنا فإننا منابذك على سواء . إن الله لا يحب الخائنين . فقال الإمام على أصابكم حاصب (والحاصب هى الريح الشديدة التى تثير الحصباء) ، ولا بقى منكم آبر ، أبعد إيماني برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجرتي معه ، وجهادى فى سبيل الله ، أشهد على

نفسى بالكفر ؟ ! لقد ضللت إداً وما أنا من المهتدين . ثم انصرف عنهم ، فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهبثوا للقاء الرب - الرواح الرواح إلى الجنة .

وخرج الإمام على فعباً أصحابه ، وعبأت الخوارج ، ورفع الإمام رايته مع أبى أيوب فناداهم : من جاء هذه الراية ممن لم يقتل فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن ، فانصرف خمسمائة فارس منهم . وبقى مع الإمام ألفان وثمانمائة وزحفوا إلى على ويقول المسعودى إن الإمام وقف عليهم بنتمسه فدعاهم إلى الرجوع والتوبة فأبوا ، ورموا أصحابه ، فقتل له قد رمونا . فقال كفوا . فكررُوا القول عليه ثلاثاً وهو يأمرهم بالكف حتى أتى برجل قتيل متشطح بدمه ، فقال الإمام الله أكبر ! الآن حل قتالهم . احملاوا على القوم . فحمل رجل من الخوارج على أصحاب على فخرج فيهم وجعل يغشى كل ناحية ويقول :

أضربهم ولو أرى علياً ألبسته أبيض مشرفياً

فحمل عليه الإمام وقتله ثم خرج منهم آخر فحمل على الناس ففتك فيهم وجعل يكر عليهم وهو يقول :

أضربهم ولو أرى أبا حسن ألبسته بصارى ثوب غبن

فخرج إليه على وهو يقول :

يأيها المبتغى أبا حسن إليك فانظر أينما يلقي الغبن

وحمل عليه وشكته بالرمح وترك الرمح فيه . وانصرف على وهو يقول : لقد رأيت أبا حسن فرأيت ما تكره .

روى أبو عبيدة معمر بن المثنى قال : التفت على إلى أصحابه فقال لهم : شدوا عليهم ، فأنا أول من يشد عليهم ؛ وحمل بذي الفقار حملة عنيفة ثلاث مرات ، كل حملة يضرب به حتى يعوج منته ثم يخرج فيسويه بركبتيه ، ثم يحمل به حتى أفنأهم ولم يبق منهم سوى أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال .

قال ابن الأثير : ولما فرغ على من أهل النهر حمد الله وأثنى عليه وقال إن الله قد أحسن بكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم بالشام . قالوا : يا أمير المؤمنين . نفذت نبأنا ، وكلت سيوفنا ، ووصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا إلى مصرنا ، لنستعد ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا وكان المتصدى للإمام كالعادة الأشعث ابن قيس .

تسلل الجند ودخلوا الكوفة ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ، وأيقن الإمام أن القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم ، فانكسر عليه رأيه في المسير ، وحاول للمرة الأخيرة أن يخاطبهم فقال : « أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدوكم ، ومن جهاده القربة إلى الله عز وجل ، ودرك الوسيلة عنده ، خيارى عن الحق ، جفاة عن الكتاب ، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله ، وكفى بالله وكيلا ، وكفى الإمام عل

بالله نصيراً . فلم ينفروا . وكان السلم محبباً إليهم . ومضى أصحاب
 الإمام في إيثار الراحة والدعة والنكوص عن الحرب كلما دعوا إليها .
 أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانته طلاب المنافع عامدين ،
 وأعانته الخوارج غير عامدين ، واشترى ضمائر الرؤساء ، وأفسدهم على
 إمامهم ، وجعلهم بالقياس إليه منافقين . يعطونه الطاعة بأطراف
 ألسنتهم ، ويطؤون قلوبهم على المعصية والخذلان .
 بقي الإمام في الكوفة يائساً منعزلاً عن الناس يتمنى الموت كما قال
 في بعض خطبه ، ويوجس شراً من أقرب المقربين إليه ، وانتهى بقبول
 المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولعاقبة الشام ،
 ويكفها السيف عن هذه الأمة فلا نزاع ولا قتال .

المائة الأخيرة

يقول الطبرى فى تاريخه وابن الأثير فى الكامل : اجتمع زعماء
الخورج ، ومنهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، والبرك بن عبد الله
التميمى الصريمى واسمه الحجاج ، وعمرو بن أبى بكر التميمى السعدى ،
وتذاكروا أمر الناس ، وعابوا الولاة ، ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم
وقالوا : ما نصنع بالبقاء بعدهم ، فلو شربنا أنفسنا لله ، وقتلنا أئمة
الضلال ، وأرحنا منهم البلاد ! فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علياً ،
وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية . وقال عمرو بن بكر :
أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا ألا ينكص أحدهم عن صاحبه
الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، وأخذوا سيوفهم فسموها .
وأتى ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه بها ، وكنتمهم أمره ، ورأى يوماً أصحاباً
له من تيم الرباب ، ومعهم امرأة منهم اسمها « قطام » ، قتل أبوها
وأخوها يوم النهر ، وكانت فائقة الجمال فخطبها ، فقالت : لا أتزوجك
إلا على ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على .

فقال : أما قتل على فما أراك ذكرته وأنت تريدنى .

قالت : بل التمس غرته ، فإن أصبته شفيت نفسك ونفسى .

وزفَعَكَ العيش معي ، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها .

قال : والله ما جاء بي إلا قتل علي ، فلك ما سألت .

قالت : سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك .

وبعثت إلى رجل من قومها اسمه وردان فأجابها ، وأتى ابن ملجم

شبيب بن بجرة ، فقال : هل لك في شرف الدنيا والآخرة . قال :

وما ذاك ؟ قال : قتل علي بن أبي طالب .

قال شبيب : ثكلتك أمك ! لقد جئت شيئاً إداً ، كيف تقدر

على قتله ؟ !

قال : أكن له في المسجد ، فإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا

عليه فقتلناه .

قال : ويحك ! لو كان غير علي لكان أهون ، قد عرفت سابقته

وفضله وبلاءه في الإسلام وما أجدني أنشرح لقتله .

قال : أما تعلمه قتل أهل النهر العباد الصالحين ؟ !

قال : بلى .

قال : فلنقتله بمن قتل من أصحابنا . فأجابته . فلما كانت ليلة

الجمعة — وهي الليلة التي واعد ابن ملجم فيها أصحابه علي قتل علي

ومعاوية وعمره — جاءوا قطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة ، فدعت

لهم بالحرير وعصبتهم به .

وخرج الإمام رضى الله عنه ونادى : الصلاة الصلاة ، فضربه شبيب بالسيف فوق سيفه بعضادة الباب ، وضربه ابن ملجم على قرنه بالسيف وقال : الحكم لله لا لك يا على ولا لأصحابك . ويقول أبو الفرج فضربه ابن ملجم فأثبت الضربة في وسط رأسه .

وفى الاستيعاب اختلفوا : هل ضربه فى الصلاة أو قبل الدخول فيها ، وهرب القوم نحو أبواب المسجد ، وتبادر الناس لأخذهم . قال أبو الفرج فأما شبيب فأخذه رجل فصرعه ، وقيل إن الذى قتله ابن عم له ، وأما ابن ملجم فلحقه رجل من همدان وقبض عليه ، وأخذ السيف من يده وجاء به أمير المؤمنين .

واحتمل الإمام فأدخل داره ، وجلست أم كلثوم عند رجله ، ففتح عينيه ، فنظر إلى الحسن والحسين فقال : الرفيق الأعلى خير مستقراً وأحسن مقيلاً . ثم عرق ، ثم أنعمى عليه ، ثم أفاق فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى بالرواح إليه عشاء ثلاث مرات .

يقول ابن الأثير : — وأدخل ابن ملجم على أمير المؤمنين وهو مكتوف فقال : أى عدو الله ! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى . فاحملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه . قال على : لا أراك إلا مقتولاً به ، ولا أراك إلا من شر خلق الله ، ثم قال النفس بالنفس . إن هلكت فاقتلوه كما قتلنى ، وإن بقيت

رأيت فيه رأيتي ، يا بني عبد المطلب لا أفيئكم نخوضون دماء المسلمين ،
وتقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن إلا قاتلي .

ثم وجه كلامه إلى نجله الإمام الحسن قائلا « انظر يا حسن إذا
أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثلن بالرجل ،
فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إياكم والمُسْتَلَّة ولو
بالكلب العقور . »

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يولد الإمام في الكعبة وأن يموت
شهيدياً في بيت من بيوت الله . وكان ذلك في ليلة الجمعة ١٧ من رمضان
سنة ٤٠ هـ .

وفي قتل الإمام يقول ابن أبي مياس المروزي^(١)

ولم أر مهراً ساقه ذوسباحة كهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وطلب الإمام الحسن إحضار ابن ملجم ، فلما مثل بين يديه
قال له ابن ملجم : ما الذي أمرك به أبوك ؟

— أمرني ألا أقتل غير قاتله ، وأن أشبع بطنك ، وأنعم وطأك ،
فإن عاش اقتص أو عفا ، وإن مات ألحقك به .

(١) نسب البعض هذا الشعر للفرزدق .

فقال الأئمة : « إن كان أبوك ليقول الحق ويقضى به في حالة الغضب والرضا » .

ثم ضربه الإمام الحسن ضربة بالسيف وقتله ولم يمثل به .
وقد اختلف المؤرخون في مسألة التمثيل به ، فذهب فريق من المؤرخين إلى أنه من الموضوعات الهامة ، وذلك لنهي أمير المؤمنين عنه مكرراً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المثلة حرام ولو بالكلب العقور » . فكيف يسوغ لريحانة الرسول وسبطه أن يعرض عن وصية أبيه .
كما اختلف القائلون في الشخص الذي مثل بابن ملجم ، فالمحب الطبري ذكر أن الذي مثل به الإمام الحسين ومحمد بن الحنفية ، وقد نهاهما الحسن عن ذلك فلم يدعنا له . وذكر أبو الفداء أن الذي قام بذلك عبد الله بن جعفر ، وذكر ابن أبي الحديد أن الحسن هو الذي قام به . وذكر الأستاذ العميد الدكتور طه حسين : « إن الشيء المحقق هو أن ولاية الدم لم ينفذوا وصية علي في أمر قاتله ، فهو قد أمرهم أن يلحقوه به ولا يعتدوا ، ولكنهم مثلوا به أشنع تمثيل فلما مات حرقوه بالنار » .

والذي أميل إليه أن التمثيل بابن ملجم لم يكن من أسباط الرسول لأن الإمام علي بن أبي طالب قال للحسن يوصيه : « يا بني ارفق بأسيرك وارحمه وأشفق عليه » . فقال له الحسن « يا أبتاه ، قتلتك هذا اللعين ، وفجعنا بك ، وأنت تأمرنا بالرفق به » .

فأجابه أمير المؤمنين : « يا بني نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ،
 أطعمه مما تأكل واسقه مما تشرب ، فإن أنا مت فاقتصص منه بأن تقتله ،
 ولا تمثل بالرجل ، فإني سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » ، وإن أنا عشت فأنا أعلم
 ما أفعل به ، وأنا أولى بالعضو ، فنحن أهل بيت لا تزداد على المذنب
 إلينا إلا عفواً وكرماً .

ونعود إلى عمرو بن العاص ومعاوية لئرى مدى تنفيذ المؤامرة فيهما .
 فأما عمرو بن العاص فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته ،
 وأمر خاروجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس ، فضربه
 عمرو بن بكير وهو يحسبه عمراً فقتله ، فقال عمرو : « أردتني وأراد الله
 خارجة » . وأمر بقتله ، وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله وقد خرج
 للصلاة فوقعت الضربة على إليته ، وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها
 إلا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل ، فجزع معاوية من النار ورضى
 بانقطاع النسل وهو يقول : « في يزيد وعبد الله ما تقرّبه عيني » .

وأخيراً فهى المصادقة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب الإمام
 وحده ضحية هذه المؤامرة وبفلت زهيلاه منها : معاوية وعمرو بن العاص .
 والرواة يختلفون بعد ذلك فى قبر الإمام — يقولون إنه دفن بالكوفة
 ونُحى قبره حتى لا يبسه الخوارج ، وقوم يقولون : إن الحسين نقله
 بعد ذلك إلى المدينة فدفننه إلى جانب فاطمة زوجته ، والغلاة من خصوم

الشيعة يزعمون أنه نقل إلى الحجاز في تابوت وضع على بعير ولكن ناقله أضلوا بعيرهم ذلك ، فأخذته جماعة من الأعراب ظنوا أن عليه مالا في ذلك التابوت ، فلما رأوا أن فيه جثة قتيل دفنوه في مكان مجهول من الصحراء ، والكلام كما يقول الدكتور طه حسين في هذه الروايات المختلفة لا ينقضى ، وليس فيه طائل أو غناء .

وقد انتهى النبأ بموت علي إلى أهل المدينة ، وبلغ السيدة عائشة رضی الله عنها فتمثلت قول الشاعر :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

كانها أرادت أن تقول : إن علياً قد أراح بموته واستراح ، وليس من شك في أنه استراح بموته من شقاء كثير ، ولكن الشك كل الشك في أنه أراح ، بل اليقين كل اليقين هو أن موت علي رحمه الله لم يُرح أحداً ، وإنما أورث المسلمين عناء وخلافاً لم ينقضيا بعد ، وما أرى أنهما سينقضيان قبل وقت يعلم الله وحده أيقصر أم يطول^(١) .

وصية أمير المؤمنين عليه السلام :

ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه وأبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبين : « بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما أوصى

(١) الفتنة الكبرى للعيد الدكتور طه حسين .

به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم إن صلاحى ونسكى ومحباى وممانى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، أوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شئ منها زوى عنكما ، وقولا بالحق واعملا للأجر (للآخرة) ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً ، أوصيكما بجميع ولدى وأهل بيتى ومن بلغهم كتابى هذا من المؤمنين بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ، وإن البغضة حائلة الدين ولا قوة إلا بالله ، انظروا ذوى أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب ، والله الله فى الأيتام ، لا تغيروا أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من عال يتيماً حتى يستغنى أوجب الله له الجنة ، كما أوجب لآكل مال اليتيم النار ، والله الله فى القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم ، والله الله فى جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم ، والله الله فى بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم ، فإنه إن ترك لم تناظروا ، وإن أدنى ما يرجع به من أمه أن يغفر له ما سلف من ذنبه ، والله الله فى الصلاة فإنها خير العمل وإنها عمود دينكم ، والله الله فى الزكاة

فإنها تطفئ غضب ربكم ، والله الله في صيام شهر رمضان فإن صيامه
 جنة من النار ، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ،
 وإنما يجاهد في سبيل الله رجالان : إمام هدى ، ومطيع له مقتد بهداه ،
 والله الله في ذرية نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم ، والله الله في أصحاب
 نبيكم الذين لم يحدثوا حدثاً ، ولم يؤثروا محدثاً ، فإن رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم أوصى بهم ، ولعن المحدث منهم ومن غيرهم والمؤثر للمحدث ،
 والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم ، والله الله في النساء
 وما ملكت أيمانكم ، فإن آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أن قال : أوصيكم بالضعيفين : نسائكم وما ملكت أيمانكم ، ثم قال
 الصلاة الصلاة ولا تخافن في الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم ،
 قولوا للناس حسناً كما أمركم الله عز وجل ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف
 والنهي عن المنكر فيؤلى الله الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم ،
 عليكم بالتواصل والتبازل والتبار ، وإياكم والتقاطع والتدابير والتفرق ،
 وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله
 شديد العقاب ، حفظكم الله أهل البيت وحفظ فيكم نبيكم ، وأستودعكم
 الله خير مستودع وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ويقول ابن الأثير إن الإمام دعا الحسن والحسين عليهم جميعاً السلام
 وقال لهم نفس الوصية ، ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال هل حفظت
 ما أوصيت به أخويك قال : نعم قال : فإني أوصيك بمثله ،

وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقهما عليك ، ولا تقطع دونهما
 أمراً ، ثم قال أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد
 علمتما أن أباكما كان يحبه .

وقال للحسن : أوصيك أى بنى بتقوى الله ، وإقام الصلاة ،
 وإيتاء الزكاة ، وغفر الذنوب ، وكظم الغيظ ، وصلوة الرحم ، والحلم
 عن الجاهل ، والتفقه فى الدين ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ،
 والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش .

ثم كرر قوله فى شأن ضاربه ، وقال للحسن : « أبصروا ضارى ،
 أطعموه من طعامى ، واسقوه من شرابى » .

ثم قال : « إذا أنا مت فلا تغال فى كفى ، وصل على « وكبر
 على سبعا ، وفى رواية خمسا ، وغيب قبرى » .

قال ابن الأثير : ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى توفى عليه
 السلام .

روائع من كلام أمير المؤمنين

١ - في حديث الإمام علي بن أبي طالب عن الدنيا يقول : إنها تغوى وتسلم . وتذل وتضر ، (والآخرة تسر) ، وهي أمد (والآخرة أبد) ، ومحل الغيـر ودار المحن . وغنيمة الحمقى ، وضحكة المغتر . وأمنية الأرجاس ، ومطلقة الأكياس ، إذ هي ظل زائل . ومنقطعة : وعواربها مرتجعة وفانية . كيوم مضى وشهر انقضى ، وهي العاجلة ، الفرح بها حُـمُـق ، والاعتزاز بها خُـرُـق ، لأنها دار الغرباء . وسوق الخسران ، المواصل لها مقطوع ، والكمال فيها مفقود . هي مصرع العقول . وعالم النقائص والآفات ، الواه بها أعظم فتنة . وهي كما تجبر تكسر ، وكما تقبل تدبر ، وهي بالآمل الكبير بها قُل ، والترغيب فيها يوجب المقت ، والزهد فيها هو الراحة العظمى ! هي حلم ، والاعتزاز بها ندم ، وسُمّ أكله من لا يعرفه ، ومعدن الشر ومزرعته ، ودار الأشقياء ومنينهم وموطنهم ، ولأن الأمر قريب ، والرحيل وشيك يقول : الموت مريح ، وهو مفارقة دار الفناء . وارتحال إلى دار البقاء . والأعمال الدنيا تجارة الآخرة . والحازم من ترك الدنيا للآخرة ، والرابح من باع العاجلة بالآخرة والفقر والغنى بعد العرض على الله ، والحنة دار الأمان ودار الأتقياء ومعبرة الآخرة ، وهولذلك يذكّر الإنسان بالموت ويقصر الأمل . ويقول : الحى لا يكتفى ،

والأمل حجاب الأجل ، وهو خادع ضار لا غاية له ويصرع ، الأمانى
 أشتات تخذلك ، وعند الحقائق تدعك ، وتدنى الآجال وتنقطع بها العمر
 أنفاس معدودة والساعات تنهب الأعمار ، والذكر الجميل أحد العمرين !
 وروى عن الصادق عن آبائه - عنه - قال : إني كنت في (فلك) في
 بعض حيطانها حين صارت لفاطمة رضى الله عنها إذا أنا بامرأة قد هجمت
 عسلّى وفي يدي مسحاة وأنا أعمل بها ، فلما نظرت إليها طار قلبي مما
 تداخلني من جمالها فتشبهتها ببشينة بنت عامر بن الجمحي ، وكانت من
 أجمل نساء قریش فقالت لي :

« يا بن أبي طالب فهل لك أن تتزوجني فأغنيك عن هذه المسحاة
 وأدلك على خزائن الأرض ويكون لك الملك » ؟
 فقلت لها : من أنت حتى أتزوجك من أهلك ؟ .
 فقالت : أنا الدنيا .

فقلت لها : ارجعي واطلبي زوجاً غيري .

وأنشأت :

فغرتي سواي إنني غير راغب لما فيك من عيزٍ وملك ونائل
 وقد قنعت نفسي بما قد رزقته فشأنك يا دنيا وأهل الغوائل
 فإني أخاف الله يوم لقائه وأحشى عقاباً دائماً غير زائل !
 وفي التفسير المنسوب للإمام الزكي الحسن العسكري قال : دخل

جابر بن عبد الله الأنصاري على أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ،
فقال له :

يا جابر قوام الدنيا بأربعة : عالم يستعمل علمه ، وجاهل لا يستكف
أن يتعلم ، وغني جواد بمعرفه ، وفقير لا يبيع دينه بدنياه غيره !
يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه ، فإن فعل
ما يجب لله عليه عرضها للدوام والبقاء ، وإن قصر فيما يجب لله عليه عرضها
للزوال والفناء .

وأنشأ يقول :

ما أحسن الدنيا وإقبالها إذا أطاع الله من نالها !
من لم يواس الناس في فضله عرض للإدبار إقبالها
فاحذر زوال الفضل يا جابر وأعط من دنياك من سالها
ثم قال : إذا كتم العالم العلم لأهله ، وزها الجاهل في تعلم ما لا بد
منه ، ويخل الغني بمعرفه ، وباع الفقير آخرته بدنياه ، حل البلاء وعظم
العقاب :

وكم رأينا من ذوى ثروة لم يقبلوا بالشكر إقبالها
تاهوا على الدنيا بأموالهم وقيدوا بالبخل أقبالها
لو شكروا النعمة جازاهم مقالة الشكر التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرتم غالها

وقال الإمام رضى الله عنه : يا بن آدم أيامك ثلاثة ، يوم أنت فيه
فاعمل فيه لنفسك واجهد لها ، وأمس ماض بخيره وشره لا تدركه إلى يوم
القيامة ، وغد مقبل بسعده ونحسه لا تدري أتبلغه أم لا . ثم أنشد :

مضى أمسك الماضى شهيداً معدلاً وأصبحت فى يوم عليك شهيد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة فئن بإحسان وأنت حميد
ولا ترخ فعل الخير يوماً إلى غد لعل غداً يأتى وأنت فقيد

ويقول رضى الله عنه :

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأرزاق حظاً وقسمة ففقل حريص المرء فى الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها فما بال متروك به الحر يبخل
وإن تكن الأبدان للموت أنثنت فقتل امرئ لله بالسيف أفضل

وذكر الثعلبي فى تفسير قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه
مسكيناً ويتيمماً وأسيراً) ، أنها نزلت فى « على » - قال : جاء مسكين ،
فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد . مسكين من مساكين المؤمنين .
أطعموني يطعمكم الله ، فسمعه على فقال :

فاطم ذات المجد واليقين يا بنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين يشكو إلينا جائع حزين

كل امرئ بكسبه رهين وفاعل الحيرات يستين
 موعده جنة عليّين حرّمها الله على الضنين
 وللبخيل موقف مهين تهوى به النار إلى سجين
 شرا به الحميم والغيلين

ويقول الإمام على حائثاً على رعاية النعم :

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

ويقول الأستاذ العلامة العقاد معلقاً على قول الإمام : « يا دنيا غري
 غري . . . غري غري » : « وإنها لأكثر من كلمة وأكثر من دعاء -
 لأنها لسان قدر وعنوان حياة ، فقد خلق الإمام وفي كل خليفة من خللائقه
 الكبار اجترأ على الدنيا على ضرب من ضروب الاجترأ ، خلق شجاعاً
 بالغاً في الشجاعة ، وزاهداً بين الزهد ، ودارساً محبباً للحقيقة الدينية
 يتحراها حيث انتهى إليها ، والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة ،
 والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم ، وطالب الحقيقة جرىء على
 الدنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها ، فأى مصير لهذا الرجل غير
 الشهادة في زمن لم يعرف بطاري من الطواري كما عرف بالإقبال على الدنيا ؟
 صام الناس قبله عن الدنيا ، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بخدا فبرها ،
 هدأت حماسة الدعوة النبوية وثابت الطباع إلى مألوفها الذي أشربت
 عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة

العربية قط في تاريخها القديم ، وأقبل الناس على الدنيا ، بل هروا إلى الدنيا ، وإذا بخليفة جرى عليها زاهد فيها يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها ، يصد ماذا ؟ يصد الطوفان وهو مندفع من وراء السدود ، يصد الطبيعة الإنسانية وهي منطلقة من عقال التقوى ، يصد ما لا سبيل إلى صده بحال ، فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره ، فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ، وقد لزمته آية الشهادة في كل قسمة كتبت له وكل حركة سعى إليها أوسعت إليه ، ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا وقد غرت حوله كل إنسان .

وعن الدين؛ يفهم من حديثه عنه : أن الدين ذخركم ، والعلم دليل ، ولا يصلح له إلا العقل ، وهو يعصم ويصد عن المحارم ويجلب . ويصفه بأنه جبور وأفضل مطلوب وأقوى عماد ، وأنه شجرة أصلها التسليم والرضا ، وثمرتها الزهد . الصدق لباسه واليقين رأسه ، والإخلاص غايته ، والجهاد عماده ، والجدل فيه يفسد اليقين ، ويقرر أن الوفاء عنوان وفور الدين وقوة الأمانة ، وأن الشك يفسد الدين والمرتاب لا دين له ، والمصيبة بالدين أعظم المصائب ، وإخوان الدين أبى مودة ، والدين أشرف النسبين ، والمغبون من فسد دينه ، والحياة دليل على قلة الورع وعدم الديانة . ويقول رضى الله عنه :

إن المكارم أخلاق مطهرة فالدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والحدود خامسها والفضل سادها

والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين باقياها
والنفس تعلم أنى لا أصادقها ولست أرشد إلا حين أعصياها

وعن الإيمان يقول : إن الإيمان أمان ونجاة ، وأعلى غاية ، وشفيح
منج ، وشهاب لا يخبو ، وأمارات العز ، وأفضل الأمانين ، وأصح
الولائج ، وبرىء من الحسد والنفاق ، منزه عن الزيف والشقاق ، وهو
صبر في البلاء وشكر في الرخاء .

ويصفه بأنه إخلاص العمل ، وبأن الصبر رأسه وثمرته ، والصدق
حليته وأقوى دعائمه ، والفقر زينته ، واليقين عنوانه ، ولذا يقول :

« المرء بإيمانه ، والمؤمن بعمله ، آلف مألوف متعطف ، كيس
عاقل : (إذ الكافر فاجر جاهل) ، الوجل شعاره ، والرفق أخوه ،
والتقوى حصنه ، والحلم نظام أمره ، وهو منيب مستغفر تواب (إذ المرتاب
يستكبر ، والمنافق متكبر مصر مرتاب) ، لين هين ، سهل مؤتمن (إذ الكافر
خب ، شديد الخداع ، جاف خائن) ، ينصف من لا ينصفه ،
مغمور بفكرته ضنين بخلته ، لين العريكة ، سهل الخليقة ، (إذ الكافر
شرس الخليقة سيئ الطريقة) ، قليل الزلل كثير العمل (إذ المنافق قليل
العمل كثير الخطل) ، سيرته القصد ، وستته الرشد ، يعاف اللهو ،
ويألف الجدد ، صدوق اللسان ، بذول الإحسان ، ينتظر إحدى الحسينين
غريزته النصيح ، وسجيته الكظم ، وهو لا يظلم ولا يتأثم ، فالمؤمنون أعظم

أحلاماً ، خيراتهم مأمولة ، وشروهم معدومة ، الوجمل والخوف شعارهم ،
والشوق خاصة العارفين منهم ، والتجمل من أخلاقهم .

فالأمانة إيمان ، والنجاة مع الإيمان ، والفضل مع الإحسان ، (إذ
المكر السيء والغفل مجانبان للإيمان) .

ومن حديثه عن العلم : إن العلم عز وحرز ، وأعظم وأعلى كنز لا يفنى ،
وجمال لا يخفى ، ونسب لا يُنقى ، وحياة جلالة تنجى وتنجد ، وأجل
بضاعة ، ونعم الدليل ، وأشرف هداية ، ومكسب النبل وداعى الفهم ،
وزينة الأغنياء ، وغنى الفقراء ، ومصباح العقل ، وينبوع الفضل ،
وقائد الحلم وأصله ، ونزعة المتقين ، وخير دليل لا ينتهى ، العامل به
كالسائر على الطريق الواضح ، والعلم بالله عز وجل شرف مرجو ، وهو
رشد لمن عمل به ، ويهدى إلى الحق . وينسب العقل للعلم بقوله : العلم
عنوان العقل والجهل فساد كل أمر .

ويقول رضى الله عنه :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسادهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت وليس له حين النشور نشور

• • •

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

فقم بعلم ولا تطلب به بدلا فالناس موتى وأهل العلم أحياء

• • •

العلم زين فكن للعلم مكتسباً وكن له طالباً ما عشت مقتبياً
اركن إليه وثق بالله واغن به وكن حليماً رزين العقل محترساً

ويقول الإمام أيضاً: العقل يوجب الحذر، والجهل يوجب الغرور،
العقل حيث كان إلف مألوف، وينبوع الخير، وصلاح كل أمر،
وشجرة ثمرها الحياء والسخاء، الجهل يفسد المعاد، والهوى ضد العقل
وعدوه، والغفلة ضد الحزم، اللهو والحقد من ثمار الجهل، واليقظة
استبصار ونور، والغفلة غرور وأضرار الأعداء. العاقل يطلب الكمال،
والجاهل يطلب المال: الظفر بالحزم، والحزم بالتجارب وإجالة الرأي،
والتجارب لا تنقضي والعاقل منها في زيادة. العاقل من اتعظ بسواه وأمات
شهوته، والقوى من قمع لذته، والجاهل من انخدع بهواه. ولذا يقول:
العلم ينجيك والجهل يرديك. ويعلم ذلك بأن العقل مركبه والتواضع
ثمرته والفهم آيته.

وفي هذا يقول رضى الله عنه:

وأفضل قسم الله للمسرء عقله
إذا أكل الرحمن للمسرء عقله
يعيش الفقى فى الناس بالعقل إنه
وليس من الخيرات شىء يقاربه
فقد كملت أخلاقه ومآربه
على العقل يجرى علمه وتجاربه

فمن كان غلاباً بعقل ونجدة فذو الجذ في أمر المعيشة غالبه
يزين الفتى في الناس صحة عقله وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله وإن كرمت أعراقه ومناصبه

ويرى الإمام رضى الله عنه أن العلم لقاح المعرفة وإحدى الحياتين ،
العالم حى وإن كان ميتاً ، والجاهل ميت وإن كان حياً ، العلم حياة
وشفاء ، والجهل موت وداء ، الحلم حلية العلم وعلّة السلم . العالم ينظر
بقلبه وخاطره ، والجاهل ينظر بعينه وناظره .

وعن العمل يقول الإمام رضى الله عنه : إنه عنوان الطوية وشعار المؤمن ،
وأكل خلف ، ويربط الإمام العلم بالعمل ويقول : العلم بالعمل .
ويوضح فهمه للصلة بينهما بقوله : العلم بغير عمل وبال ، والعمل بغير
علم ضلال .

ويقول أيضاً إن العاقل من يعتمد على عمله والجاهل من يعتمد على
أمله ، والإخلاص أشرف نهاية وهو خير العمل ، والعمل بطاعة الله أريح ،
والرجاء لرحمة الله أنجح ، والعمل كله هباء إلا ما أخلص فيه ، والنية
الصالحة أحد العاملين ، والتوكل أفضل عمل ، والأعمال ثمار النيات ،
والعمل الجليل ينبي عن علو الهمة ، والمواساة أفضل الأعمال ، والمداراة
أحمد الخلال ، والإيثار فضيلة ، والبر عمل مصلح ، والإحسان غنم ،
والعفو من الإحسان ، والمحسن والعاقل من صدقت أقواله أفعاله ، والكيس

من عرف نفسه وأخلص أعماله ، والصدقة أفضل القرب والحسنات ،
والكريم من بذل إحسانه ، واللئيم من أكثر امتنانه ، والعاقل من بذل
نداه ، والحازم من كف أذاه ، والشكر ترجمان النية وإسان الطوية .

ويقول رضى الله عنه حائثاً على العمل :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألق دلوك في الدلاء
تعجك بمائها يوماً ويوماً تعجك بمجأة وقليل ماء

وعن العبادة يفهم من حديثه عنها أنها فوز ، أولها انتظار الفرج
بالصبر ، وأفضلها اليقين ، والإخلاص روحها وعمرتها وغايتها ، والفكر
عبادة ، والانفراد راحة المتعبدين ، والإيثار أفضل عبادة وأجل سيادة ،
والغريب من ليس له حبيب ، والمتعبد ليس غريباً ، والإشراك كفر ،
والتوحيد حياة النفس . وهو ألا تتوهم ، والتسليم ألا تتهم ، والمتعبد سخي ،
والبخل بالموجود سوء ظن بالمعبود ، والإحسان محبة ، والدنيا بالإنفاق ،
والآخرة بالاستحقاق ، والذكر جلاء البصائر ونور السرائر ، ومجالسة
المحجوب ، وهداية العقول ، وتبصرة النفوس ، ولذة المحبين ، وهو نور
يشرح الصدر ، وأهل القرآن والذكر هم أهل الله وخاصته .

ويتاجى ، رضى الله عنه ، الله سبحانه وتعالى فيقول :

ليبك لبيك أنت مولاه فارحم عبيداً إليك ملجاه
ياذا المعالى إليك معتمدى طوبى لمن كنت أنت مولاه

طوبى لمن كان نادماً أرقاً
وما به علة ولا سقَمٌ
إذا خلا في الظلام مبتهلاً
سألت عبدي وأنت في كني
صوتك تشافه ملائكتي
في جنة الخلد ما تمناه
سلى بلا خشية ولا رهب
يشكو إلى ذى الجلال بلواه
أكثر من حبة لمواه
أجابه الله ثم لبّاه
وكل ما قلت قد سمعناه
فذنبتك الآن قد غفرناه
طوباه طوباه ثم طوباه
ولا تخف إننى أنا الله

ويستمر رضى الله عنه مناجياً فيقول :

لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلل
إلهى ونحلاقى وحرزى وموتلى
إلهى لئن جلّت وجمّت خطيئتي
إلهى لئن أعطيت نفسى سؤلها
إلهى ترى حالى وفكرى وفاقى
إلهى فلا تقطع رجائى ولا ترغ
إلهى لئن خيبتنى أو طردتنى
إلهى أجرنى من عذابك إننى
إلهى فآنسى بملقين حججى
إلهى فإن عذبتنى ألف حجة
إلهى أذقنى طعم عفوك يوم لا

تباركت تعطى من تشاء وتمنع
إليك لدى الإعسار واليسر أقرع
فعفوك عن ذنبي أجل وأوسع
فها أنا فى أرض الندامة أرتع
وأنت مناجاتى الحفوية تسمع
فؤادى فلى فى سيب جودك مطمع
هن ذا الذى أرجو ومن ذا أشفع
أسيرٌ ذليلٌ خائف لك أخضع
إذا كان لى فى القبر مثوى ومفجع
فحبلى رجائى منك لا يتقطع
بنون ولا مال هنالك ينفع

وإن كنت ترعاني فلست أضيع
 فن لمسىء بالهوى يتمتع
 فيها أنا إثر العفو أقفو وأتبع
 وصفحك عن ذنبي أجل وأرفع
 فلإني مقرر خائف متضرع
 فلست سوى أبواب دارك أقرع
 فاحيلتي يا رب أم كيف أصنع
 لرحمتك العظمى وفي الخلد يطمع
 وقبح خطيئاتي على يشنع
 وإلا فبالذنب المدبر أصرع
 وحرمة أبرار هم لك خشع
 تقيًا نقيًا قانتًا لك أخشع
 شفاعته الكبرى فذاك المشفع
 وناداك أخيار ببابك ركم

إلهي إذا لم ترعني كنت ضائعًا
 إلهي إذا لم تعف عن غير محسن
 إلهي لئن فرطت في طلب التقى
 إلهي ذنوبي بذت الطود واعتلت
 إلهي أقلني عثرتي وامح حوبتي
 إلهي أنلني منك روحًا ورحمة
 إلهي لئن أقصيتني أو طردتني
 وكلهم يرجو نوالك راجيًا
 إلهي يمتنني رجائي سلامة
 إلهي فإن تعفو فعفوك منقذني
 إلهي بحق الهاشمي وآله
 إلهي فانشرنى على دين أحمد
 ولا تحرمني يا إلهي وسيدني
 وصل عليه ما دعاك موحد

ويفهم من حديثه عن اليقين أن اليقين جلابب الأكياس ، وأفضل
 نور ، وزهادة التوكل من قوته ، وهو يشمر الزهد ، والمغبوط من قوى يقينه .
 والشاك لا يقين له ، إذ الشك يطفىء نور القلب ، واليقين يرفع الشك ،
 والريبة توجب الظنة ، والارتباب يوجب الشرك ، والثقة بالله أقوى عمل ،
 والتوكل كفاية لمن اعتمد ، وحصن الحكمة ، وأفضل عمل . والطاعة

تطفئ غضب الرب ، والعمل رفيق الموقنين ، والصدق أشرف خلائقه ،
(وللوصول إلى اليقين يجب حق الحق) .

ويفهم من حديثه عن الحق أن الحق أحق أن يتبع ، وهو سيف
قاطع ، وأفضل وأوضح سبيل وأقوى ظهير ، (إذ الباطل أضعف نصير)
والخضوع لغير الحق ذنابة ، والتعاون على إقامة الحق أمانة وديانة ،
المغلوب به غالب ، والمحارب له محروب ! والعقل رسول الحق ، والصلق
لسانه ، وهو سيف على أهل الباطل ، القول به خير من العي والصمت ،
والعزلة حسن التقوى ، والعز إدراك الانتصار بالحق ، والحق يزيل
الباطل .

وله رضى الله عنه فى وصف العزيز بالحق والمحب له :

تكون عليه حجة هي ماهايا	ومحترس من نفسه خوف ذلة
عفاقاً وتزيتهاً فأصبح عالياً	فجانب أسباب السفاهة والحنأ
أبى همة إلا العلا والمعاليا	وصان عن الفحشاء نقماً كريمة
حليماً وقوراً صائناً النفس هادياً	نراه إذا ما طاش ذو الجهل والصبأ
وفى العين إن أبصرت أبصرت ساهياً	له حلم كهمل فى صرامة حازم
فأصبح منه الماء فى الوجه صافياً	يروق صفاء الماء منه بوجهه
ويحفظ منه العهد إذ ظل راعياً	ألم تره يرعى ذماماً لجاره
كثوماً لأسرار الضمير مدارياً	صبوراً على صرف الليالى دريئة
كما قد علا البدر النجوم الدرارياً	له همة تعلق على كل همة

ثم لنستمع إليه رضى الله عنه وهو ينصح ابنه الحسين ، رضى الله عنه :
 أبني إن الذكر فيه مواعظ فمن الذى بعظاته يتأدب
 فاقراً كتاب الله جهدك واتله فيمن يقوم هناك أو من ينصب
 بتفكر وتخشع وتقرب إن المقرب عنسده المتقرب
 وابدإهك ذا المعارك مخلصاً وانصت إلى الأمثال فيما تضرب
 وإذا مررت بآية محشية تصف العذاب فقف ودمعك يسكب
 يا من يعذب من يشاء بعدله لا تجعلني في الذين تعذب
 لاني أبوء بعترقي وخطيئتي هرباً وهل إلا إليك المهرب
 وإذا مررت بآية في ذكرها وصف الوسيلة والنعيم المعجب
 فاسأل إهلك بالإتابة مخلصاً دار الخلود سؤال من يتقرب
 لتنال عيشاً لا انقطاع لوقته وتنال ملك كرامة لا تسلب
 بادرهاوك إذا هممت بصالح خوف الغوالب إذ تجيء وتغلب
 وإذا هممت بسئى فاغمض له وتجنب الأمر الذى يتجنب
 ومن حديثه عن العدل يفهم أن العدل أقوى أساس ، وأشرف سجية ،
 وهو ملاك ، والجور هلاك . ويصفه بأنه إنصاف وراحة ، وعنوان النبيل ،
 وأفضل الشيم ، وأنه فوز ومكانة وحياة (إذ الجور ممات) ، وأنه حياة
 الأحكام ، وقوام الرعية ، إذ به تصلح البرية ، وهو فضيلة السلطان .
 ويصف الظلم بأنه عقاب يسلب ويزيل ويطرده النعم .
 ولتنظر إلى كتابه الذى أرسله إلى مصقلة بن هيرة الشيباني وهو عامله

على « أردشير خردة » ، ومن هذا الكتاب نرى كيف كان الإمام يعدل في الرعية ، ويقسم بالسوية ، قال : « بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وأغضبت إمامك ، أنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وحيوطهم ، وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتملك من أعراب قومك ، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقاً لتجدن بك على هواناً ، ولتخفين عندى ميزاتاً ، فلا تستهن بحق ربك ، ولا تصلح دنياك بحق دينك ، فتكون من الأخسرين أعمالاً .

الأولان حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمه هذا سواء يردون عندى عليه ويصمدون عنه » .

وهذا كتاب آخر يوجهه إلى بعض عماله تجد فيه ما يجب أن يتصف به العامل المسئول من شدة ولين حسبما تقتضيه الظروف ، وأن يسير بالعدل في الرعية بدون تحيز : « أما بعد فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأنيم ، وأشد به لهأة الثغر المخوف ، فاستعن بالله على ما أهمك ، واخلط الشدة بضغت من اللين ، وارفق ما كان الرفق أرفق ، واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة ، أخفض للرعية جناحك ، وألن لهم جانبك ، وآس بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية حتى لا يطمع العظماء في حيفك ولا يياس الضعفاء من عدلك ، والسلام » .

وصاياہ

من وصية له عليه السلام يوجهها لعسكره قبل لقاء العدو بصفين
قال : « لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وترككم
إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم ، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله
فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تصيبوا معوراً ، ولا تجهزوا على جريح ،
ولا تهيجوا النساء بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم ، فإنهن
ضعيفات القوى والأنفوس والعقول ، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن
لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالنهر أو المراوة
فَيَسْعِيْرُ بِهَا وَعَقِبَهُ مِنْ بَعْدِهِ » .

وهذه وصية أخرى وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو فقال :
« فإذا نزلتم العدو ، أو نزل بكم ، فليكن معسكركم في قبيل الأشراف
أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كيما يكون لكم ردعاً ودونكم مرداً ،
ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي
الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو مأمن ،
واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، وإياكم
والتفرق ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً ، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ،
وإذا غشيمكم الليل فاجعلوا الرماح كفةً ، ولا تذوقوا النوم إلا غيراراً أو
مضمضة . . . » .

ومنها قوله للولادة : « إني سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشئى ، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهباً إلى شيعة فنكلوا بمن تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم ، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضاربتهم والتعرض لهم . . . » .

ومن وصيته عليه السلام لمعقل بن قيس الرياح حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقممة له قال :

« اتق الله الذى لا بدلك من لقائه ، ولا منتهى لك دونه ، ولا تقاتلن إلا من قاتلك ، وسر البردين - أى الغداة والعشى - وغور بالناس ، ورفه بالسير ، ولا تسر أول الليل ، فإن الله جعله سكناً وقدره مقاساً لا ظعنًا ، فأرح فيه بدنك ، وروح ظهرك ، فإذا وقفت حين يتبطح السحر ، أو حين ينفجر الفجر ، فسير على بركة الله ، فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً ، ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب ، ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتى يأتيك أمرى ، ولا يحملنكم شأنهم على قتالهم قبل دعائهم والاعتذار إليهم » .

ومن وصيته عليه السلام يوصى بها من يستعمله على الصدقات ، وتعد هذه الوصية المثل الأعلى في العدالة في الإسلام :

« انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروعن مسلماً ،

ولا تجتازنَّ عليه كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله ، فإذا قلمت على الحى فانزل بمائهم من غير أن تخالط آياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ، فإن قال قائل : لا ، فلا تراجع ، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه وتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به ، ولا تُسفرنَّ بهيمة ولا تفرعنَّها ، ولا تسوئنَّ صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ، ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله ، فاقبض حق الله منه ، فإن استقالك فأقله ، ثم اخلطهما ، ثم اصنع مثل الذى صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله ، ولا تأخذن عوداً ولا هزيمةً ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار ، ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم ، فيقسمه بينهم ، ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً غير مُعنف ولا مجحف ولا مغلب ولا متعب ، ثم احذر إلينا ما اجتمع عنك نُصيِّره حيث أمر الله ، فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألا يحول

بين ناقة وبين فصيلها ، ولا يُمَصَّرُ لبنها فيضِر ذلك بولدها ، ولا يجهدنها ركوباً ، ويعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها ، ويرفه على اللآغب ، ويستأن بالنقب والظالع ، وليوردها ما تمر به من الغدر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق ، ويروحها في الساعات ، وليمهلها عند النطاف والأعشاب حتى تأتينا بلذن الله بئدنا منقبات غير متعبات ولا مجهودات ، لتقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ، فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله .

وعهده إلى مالك الأشتر فيه من الوصايا والحكم ما لم يحوه عهد قبله أو بعده . يقول الإمام رضى الله عنه : « وردد إلى الله ورسوله ما يضعك من الخطوات ، ويشتهب عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحبب إرشادهم : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) — فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة .

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيثك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتأدى في الزلة ولا يحصر من النية إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدنيه إطراء ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثر

تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علتة وتقل معه حاجته إلى الناس . وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتياح الرجال له عندك ، فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعمل فيه بالهوى وتُطلب به الدنيا .

ويقول سلام الله عليه : « ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة . واجتمعت بها الألفة . وصلحت عليها الرعية ، ولا تُحدثن سنةً تصر بشيء من ماضي تلك الستين فيكون الأجر لمن سنّها ، والوزر عليك بما تنقضت منها . . .

وأكثر مدارس العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك . . .

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض . فمنها جنود الله ، ومنها كتّاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمّال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والحراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة . وكلا قد سمي الله سهمه ، ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً .

فالجنود حصون الرعية . وزين الوُلاة ، وعز الدين ، وسبل الأمن ، الإمام عل

وليس تقوم الرعية إلا بهم - ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقرون به فى جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب لما يحكمون من المعاهد ويجمعون من المنافع ويؤمنون عليه من خواصّ الأمور وعوامتها، ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحقّ رفقهم ومعونتهم وفى الله لكل سعة، ولكل على الوالى حقّ بقدر ما يصلحه، وليس يخرج الوالى من حقية ما أزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خفّ عليه أو ثقل. فولّ من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله وإمامك، وأنقاهم جيئاً، وأفضلهم حلماً ممن يبطن عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العف، ولا يقعد به الضعف.

ثم الصق بدوى الأحباب وأهل البيوتات الصالحة والسوايق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسماحة، فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف، ثم تفقد من أمورهم ما يتعقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقم فى نفسك شىء قوينهم به، ولا تحقّر لطفاً تعاهدتهم به وإن قل؛

فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ، ولا تدع
تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيهما ، فإن ليسير من لطفك موضعاً
ينتفعون به ، وللجسيم موضعاً لا يستغنون عنه . . .

وليكن أثر رؤوس جنلك عنلك من واساهم في معونته ، وأفضل
عليهم من جدته بما يسهمهم ويسع من وراءهم من خلوف أهلبيهم حتى
يكون همهم همماً واحداً في جهاد العدو ، فإن عطفك عليهم يعطف
قلوبهم عليك ، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد ،
وظهور مودة الرعية ، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ولا تصح
نصيحتهم إلا بحببتهم على ولاة الأمور وقلة استئقال دُولهم وترك استبطاء
انقطاع مدتهم ، فأفسح في آمالهم ، وواصل في حسن الثناء عليهم
وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز
الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله .

ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ، ولا تضيفنّ بلاء امرئ إلى غيره ،
ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم
من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان
عظيماً .

الإمام يصف أهل البيت

يقول الإمام عليّ رضي الله عنه في وصف أهل البيت :

هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ،
وصمتهم عن حِكْمِهم منطقتهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه . هم
دعائم الإسلام ، وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق في نصابه ، وانزاح
الباطل عن مقامه وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية
لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثير ورعاه قليل .

لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وسلم وآله من هذه الأمة أحد ،
ولا يُسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين وعماد
اليقين ، إليهم يقو الغالي وبهم يلحق التالى ، ولهم خصائص حق
الولاية وفيهم الوصية والوراثة - الآن إذ رجح الحق إلى أهله ونقل إلى
متقله . . .

ومن كلامه أيضاً في وصفهم :

« فأين يتاه بكم ، بل كيف تتعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمّة
الحق وأعلام الدين والسنة الصديق ، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم
ورود الهيم العيطاش . . . »

« انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم ، فلن يُخرجوكم من هدى ، ولن يُعيدوكم في ردى ، فإن لبدوا فالبدوا ، وإن نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا . . . »
 ألا إن مثل آل محمد صلى الله عليه وسلم مثل لنجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم ، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون . »

ولم يخطر ببال الإمام رضى الله عنه تحية أهل البيت ، وقد جاء ذلك في كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها قال : « أمّا بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين ومهيئاً على المرسلين . فلما مضى صلى الله عليه وسلم تنازع المسلمون الأمر من بعده ، فوالله ما كان يُلقي في روعى ، ولا يخطر ببالى أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وسلم عن أهل بيته ، ولا أنهم نحوه عنى من بعده ، فما راعنى إلا انشغال الناس عن فلان يبايعونه ، فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به على أعظم من قوت ولايتكم التى إنما هى متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتشعب السحاب ، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه . »

الإمام على

من كلمات البليغة

- اللهم كما صنت وجهي عن السجود^(١) لغيرك ، فصن وجهي عن مسألة غيرك .
- أربع التليل منهن كثير : النار والعداوة والمرض والفقير .
- إياك وصاحب سوء فإنه كالسيف المسلول يروق منظره ويقبح أثره .
- الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه .
- العامل بغير علم كسائر في غير طريق فلا يزيد ببعده عن الطريق إلا بعداً عن حاجته .
- أرجح الناس عقلاً وأكلمهم فضلاً من صحب أيامه بالموادعة وإخوانه بالمسألة وقبل من الزمان عفره .

(١) كما بينت : ولد الإمام داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها. وفي شرح ابن أبي الحديد عن الإمام : « أسلم على يديه - يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم - قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة ، أرمخاط عتله شوب من شرك موروث » ، وإذا كان لم يعرف عن الإمام عبادته للأصنام كذلك فإن أمه فاطمة بنت أسد أيضاً لم تسجد لصنم .

- لا تطلب الحياة لتأكل بل اطلب الأكل لتعيا .
- من حسدك لم يشكرك على إحسانك إليه .
- الحاسد المبطن للحسد كالنمل يمج الدواء ويبطن الداء .
- الحاسد يرى زوال نعمتك نعمةً عليه .
- رحم الله امرأ سمع حكماً فوعى ، ودعى إلى رشاد فدنا ، وأخذ بحجزة هاد فنجا .
- أوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله سبحانه وتعالى .
- ما شككت في الحق مذ رأيتَه .
- لا يُدرك الحق إلا بالجد .
- احترم من ذكر العلم عند من لا يرغب فيه ، ومن ذكر قديم الشرف عند من لا قديم له ، فإن ذلك مما يحقدهما عليك .
- العامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح فليُنظر أسائر هو أم راجع .
- الأدبُ عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل كلما ازداد ريباً ازداد مرارة .
- عقل الكاتب في قلمه .
- لا تسبن إبليس في العلانية وأنت صديقه في السر .

- أعم الأشياء نفعاً موت الأشرار .
- ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدرّكه .
- لا يغرّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فلإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود .
- ليكن سرورك بما قلمت : وأسفك على ما خلّفت ، وهمتك فيما بعد الموت .
- احذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره أو اعتذر عنه .
- إن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء ، وارعَ ذمتك بالأمانة . واجعل نفسك جنةً دون ما أعطيت .
- بادروا آجالكم بأعمالكم ، فإنكم مرتهنون بما أسلفتم ومدينون بما قلتم .
- لا تضعوا من رفعتة التقوى ، ولا ترفعوا من رفعتة الدنيا .
- لا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنيائك بلوغ لذة أو شفاء غيظ ، ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق .
- الجاهل يُعرف بست خصال : الغضب من غير شيء ، والكلام في غير نفع ، والعطية في غير موضعها ، وألا يعرف صديقه من عدوه . وإفشاء السر . والثقة بكل أحد .

- لا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ؛ فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة .
- أشرف الأشياء العلم . والله تعالى عالمٌ يُحب كل عالم .
- اختر أن تكون مغلوباً وأنت منصف ولا تختر أن تكون غالباً وأنت ظالم .
- ليس شيء أحسن من عقل زانه علم . ومن علم زانه صدق . ومن صدق زانه رفق ، ومن رفق زانه تقوى .
- إلهي ، كفاني فخراً أن تكون لي ربّاً ، وكفاني عزّاً أن أكون لك عبداً ، أنت كما أريد ، فاجعلني كما تريد .

obeikandi.com

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - تفسير محمد بن علي بن محمد الشركاني .
- ٣ - تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير والنسفي والبيضاوي .
- ٤ - سيرة النبي : عبد الملك بن هشام .
- ٥ - أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين .
- ٦ - شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد .
- ٧ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار : الشيخ سيد الشبلنجي .
- ٨ - الفتنة الكبرى : الدكتور طه حسين .
- ٩ - عبقرية الإمام : الأستاذ عباس محمود العقاد .
- ١٠ - ينابيع المودة : الشيخ سليمان الحسيني البلخي القندوزي .
- ١١ - الكامل : ابن الأثير .
- ١٢ - حياة أمير المؤمنين في عهد النبي : الأستاذ محمد صادق الصدر .
- ١٣ - حلية الأولياء : أبو نعيم الأصفهاني .

- ١٤ - البداية والنهاية : ابن كثير .
- ١٥ - الإمام على : الأستاذ جورج جرداق .
- ١٦ - الإمامة والسياسة : ابن قتيبة .
- ١٧ - اليقين في إمرة أمير المؤمنين : ابن طاووس .
- ١٨ - خصائص أمير المؤمنين : الشريف الرضى .
- ١٩ - الشرف المؤبد لآل محمد : يوسف النبهاني .
- ٢٠ - معاوية في الميزان : الأستاذ عباس العقاد .
- ٢١ - ملخص تاريخ الخوارج : الشيخ محمد شريف سليم .
- ٢٢ - الخلفاء أمراء المؤمنين : السيوطي .
- ٢٣ - الرياض النضرة : محب الدين الطبري .
- ٢٤ - الإرشاد : الشيخ المقيد .
- ٢٥ - عائشة والسياسة : الأستاذ سعيد الأفغاني .
- ٢٦ - حرب الجمل وحرب صفين : السيد محسن الأمين .
- ٢٧ - البيان والتبيين : الجاحظ .
- ٢٨ - طبقات ابن سعد : ابن سعد .
- ٢٩ - نظرية الإمامة : الدكتور أحمد صبحي .
- ٣٠ - الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني .

- ٣١ - الاستيعاب : ابن عبد البر .
- ٣٢ - تاريخ الطبرى .
- ٣٣ - تاريخ ابن الأثير .
- ٣٤ - مولد أمير المؤمنين فى الكعبة : الشيخ محمد على الأور دبادى .
- ٣٥ - النص والاجتهاد : السيد عبد الحسين شرف الدين .
- ٣٦ - قضاء أمير المؤمنين على بن أبى طالب : الشيخ محمد تقى التستري .
- ٣٧ - المجالس السنوية فى مناقب ومصائب العترى النبوية : السيد محسن الأمين الحسينى العاملى .
- ٣٨ - الإمام على بن أبى طالب : الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود .
- ٣٩ - الفتنة ووقعة الجمل : سيف بن عمر الضببى الأسدى .
- ٤٠ - كشف الغمة : الشيخ عبد الوهاب الشعرانى .

obeikandi.com

الفهرس

صفحة	
٧	المقدمة
٩	الإمام على بن أبي طالب
٩	مولده
١٣	أمه
١٦	زوجاته
١٧	أولاده
٢٤	على ولد مسلماً
٣٦	خصائص الإمام على :
٣٦	اختصاصه بلقب الإمام
٤٠	نشأته في حجر رسول الله
٤١	سببه إلى الإسلام
٤٢	استجابته لدعوة الرسول
٤٣	مبته في فراش الرسول ليلة الهجرة
٤٣	المواخاة بينه وبين الرسول
٤٣	حامل لواء الرسول في كل زحف

صفحة

٤٤	اجتهاده
٤٤	شجاعته .
٤٧	جهاده في سبيل الله
٤٨	تورعه عن البغى
٤٩	حلمه وصفحه
٥٠	علمه وبلاغته
٥٢	أشعر الصحابة
٥٤	معرفة القضاء والفرائض
٥٦	زهده .
٥٨	عدله .
٦١	القرآن الكريم والإمام على .
٦٦	أحاديث الرسول عن الإمام
٦٨	النظر إلى وجه الإمام عبادة
٦٩	فصاحته ودرايته .
٧١	شعور النبي بإنشاء الإمام
٧٢	حب الرسول للإمام
٧٥	اهتمام الرسول بالإمام وكفالاته وتدريبه
٧٧	موقف الإمام بعد وفاة الرسول

صفحة

١٨٣	الإمام يرفض ويردّ
١٨٦	الحرب
١٨٧	رسالة الإمام إلى عماله
١٨٩	القتال على الماء
١٩٣	الإمام يرسل معاوية بصفيين
١٩٧	القتال
٢٠٦	— اشتداد القتال والمبارزة
٢٠٨	عمار بن ياسر
٢١٣	معاوية يفاوض ابن عباس
٢١٥	ليلة الهرير وانتهاء المعركة
٢١٧	— نتيجة وقعة الهرير وحملة رفع المصاحف
٢١٨	اختلاف أصحاب الإمام
٢٢٠	ماذا قال الإمام عند رفع المصاحف؟
٢٢٢	اختيار الحكيمين
٢٢٢	الإمام يرشح ابن عباس
٢٢٥	— كتاب الصلح
٢٢٨	اجتماع الحكيمين بدومة الجندل

٢٣١	الإمام بعد التحكيم
٢٣٣	— المأساة الثالثة
٢٣٣	الخوارج ووقعة النهروان
٢٤٣	— المأساة الأخيرة
٢٤٩	— وصية أمير المؤمنين
٢٥٣	روائع من كلام أمير المؤمنين
٢٦٩	وصايا
٢٧٦	الإمام يصف أهل البيت
٢٧٨	من كلماته البليغة
٢٨٣	المراجع
٢٨٧	الفهرس

١٢ ربيع الأول ١٣٩٣

١٥ أبريل ١٩٧٣

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١٦٣٠٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6508-X

١/٢٠٠٣/٤١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع. ٠)